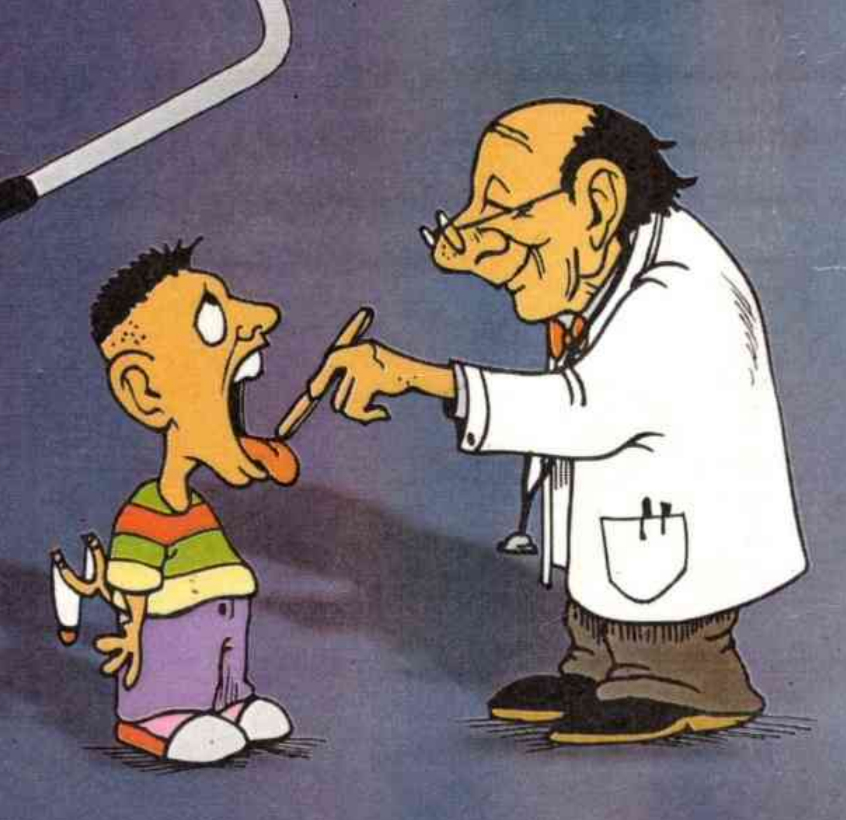


وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل
سلسلة اصدارات مركز دراسات الموصل

طرائف وأحداث لبعض أطباء الموصل

الدكتور
محمود الحاج قاسم محمد
باحث وطبيب اطفال

١٤٣٢ / ٢٠١١





وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل
سلسلة إصدارات مركز دراسات الموصل

جامعة الموصل



طرائف وأحداث لبعض أطباء الموصل

الدكتور
محمود الحاج قاسم محمد
باحث وطبيب أطفال

١٤٣٢ / ٢٠١١



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
(١٥٣١) لسنة ٢٠١١

دار ابن الأثير للطباعة والنشر
جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لكل مهنة خصوصيتها ومتاعبها ولا ريب إن مهنة الطب تعد من المهن ذات المساس بالإنسان بشكل مباشر، وهو مادتها ووجدت من اجل تطبيبه من الأمراض التي يبتلى بها، أو العلل التي يعاني منها، وقد أوصى الرسول الكريم بالتطبب.

والطبيب بحكم المهنة يقابل يومياً أناس كثر وبمستويات مختلفة من أهل المدينة أو الريف، وهناك من المرضى من يداوم على مراجعة طبيب بعينه لإيمانه بأهمية علاجه وصحة علومه ودقة تشخيصه للمرض، وبحكم التعامل اليومي مع المرضى، فقد تحدث أحياناً طرائف بريئة أو مواقف محرجة رائدها الطبيب نفسه أو المريض.

ومن اجل إيضاح تلك المواقف والتعريف بما يجابه الأطباء في عملهم من مواقف متعددة، فقد جمع الطبيب محمود الحاج قاسم- طبيب الأطفال المعروف والباحث في مجال التاريخ الطبي، عدداً من تلك الطرائف والمواقف والقصص لنخبة من أطباء مدينة الموصل، فضلاً عن مواقف وطرائف وحكايات حدثت معه في تركيا وأماكن أخرى أثناء دراسته. والغاية منها الترويح عن النفس، كما لا تخلو من العظة والفائدة في تفاصيل الحياة اليومية.

وعليه فقد تبنى مركز دراسات الموصل في إطار خطته العلمية لنشر المؤلفات التي تخص الموصل في التخصصات الإنسانية المتعددة، نشر هذه (الطرائف والأحداث)، متمنين للدكتور محمود الحاج قاسم المزيد من التقدم العلمي، كما وننتهز هذه المناسبة للتعبير عن آيات الشكر والثناء للأستاذ الدكتور أبي سعيد الديوه جي رئيس جامعة الموصل، لدعمه نشر هذا الكتاب ضمن تشجيعه المتواصل لأنشطة مركز دراسات الموصل.

ومن الله التوفيق والسؤدد

الأستاذ الدكتور ذنون الطائي

مدير مركز دراسات الموصل

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار. وبعد...

عند إعدادنا أنا والدكتور أياد الرمضاني والزملاء الآخرون (دليل الأطباء والصيادلة العاملين في الموصل في القرن العشرين) والذي صدر سنة ٢٠٠١، كنا قد طلبنا من الزملاء كتابة نوادر وطرائف مرت بهم في حياتهم العملية، فاستجاب قسم منهم وذكرناها في نهاية الجزء الأول، ولطرافتها اخترت بعضها وبتصرف وتعديل بسيط، أضفت إليها طرائف وأحداث أخرى مرت بي، وبعض القصص عن الأطباء التي كنت قد كتبتها في أوقات مختلفة كونت في مجموعها هذا الكتاب الذي ضم بين دفتيه خمسة فصول هي:

الفصل الأول: طرائف وأحداث حدثت لبعض أطباء الموصل.

الفصل الثاني: طرائف وأحداث حدثت معي بعد التخرج.

الفصل الثالث: طرائف وأحداث حدثت لطلاب الطب في تركيا.

الفصل الرابع: طرائف وأحداث حدثت معي أثناء دراسة الطب.

الفصل الخامس: قصص لأطباء الموصل.

عزيزي القارئ أرجو أن يكون هذا الكتاب الصغير متنفساً لمن ضاقت بهم مسالك الحياة وأرهقتهم مشاكلها اليومية، وأن يجدوا فيه ما ينسيهم بعض معاناتهم، وأتمنى أن يكون وسيلة لإدخال المسرة والمتعة البريئة، لذا أطلب منك أن ترسم على شفتيك ابتسامة عريضة مع تفهم لما تحويه تلك الطرائف والنوادر والحوادث من معنى ومغزى لأنها لا تخلو من حكمة.

إدخال المسرة والضحك ليست من البدع المنكرة، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضحك حتى تبدو نواجذه، وكان صلى الله عليه وسلم يمزح مع أفراد عائلته وأصحابه، فمن مزاح النبي صلى الله عليه وسلم

قوله لامرأة من الأنصار ((**الحقي بزوجك ففي عينيه بياض**)) فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبة، فقال لها: ما دهاك؟ فقالت: قال الرسول إن في عينك بياضاً. فقال: إن في عيني بياضاً لا لسوء. (ابن عبد ربه- العقد الفريد، ج ٦ ص ٣٧٩).

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال لعجوز ذهبت تطلب منه أن يدعو لها بدخول الجنة، فقال ((**لا يدخل الجنة عجوز**))، ولما صرفت مولولة، ضحك عليه السلام وقال ((**ألم تقرئي قول الله تعالى ((إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً**))) (ابن عبد ربه - العقد الفريد، ج٦ ص٣٨١)

وهنا لابد من الإشارة إلى أنني لم أسع إلى المبالغة في عرض الطرائف والحوادث، ولكنني حرصت أن أذكرها كما حدثت دون زيادة أو نقصان وبأسلوب سلس مقبول، الأمر الذي جعل من الكتاب سجلاً حافلاً بالطرائف والمواقف الطبية التي مرت على بعض الزملاء المعاصرين من أطباء الموصل، والحوادث التي مرت بي خلال مسيرتي الطبية عبر نصف قرن من الزمان.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أرى من الواجب تقديم أجزل الشكر لمركز دراسات الموصل/ جامعة الموصل وخاصة مديره الأستاذ الدكتور ذنون الطائي على الموافقة على طبع الكتاب، كما لا يفوتني شكر كافة الزملاء الذين كتبوا وذكروا لي طرائفهم ونوادرهم، والشكر موصول لابنتي سمية لتنسيقها الكتاب وأمامة لمراجعتها اللغوية للكتاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدكتور

محمود الحاج قاسم محمد

الفصل الأول

طرائف وأحداث حدثت لبعض أطباء الموصل

أمبولين B6 يعادلان أمبول B12

راجع أحد الرجال الدكتور أياد احمد سعيد (المدرس في كليـــة طـــب الموصل- ولد سنة ١٩٥٢) ومعه ابنته التي تشكو من فقر دم وتحتاج إلى علاج من ضمنه زرقات (امبول B12) وقد أخبره الــدكتور بأنـــه غيـــر متوفر في الصيدلية القريبة ويمكنه شراؤه من صيدلية أخـــرى. فمـــضى وعاد بعد قليل وهو يشتط غضباً وقال له بأنه قد وجـــد فـــي الـــصيدلية زرقات (امبول B6) فما المانع لو كتبت لها امبولين B6 لتعـــوض عـــن أمبول B12 !

من سيدفع ثمن الشراب

من النوادر الطريفة التي حدثت للدكتور أياد حسن الرمضاني (الجراح الاستشاري المعروف- ولد سنة ١٩٥٠) هي ماجرى في كلية الجراحين الملكية في لندن أثناء تسلمه جائزة هاليت، حيث كان بصحبة زوجته (في شهر العسل) وكان الجراح الاستشاري البريطاني السيد هادفيلـــد عـــضو مجلس الكلية المضيف لهما كعادة الكلية في تضييف المكـــرمين، وبعـــد التكريم وقبل بدء حفل الغداء أخبر الدكتور أياد مضيفه بأنه وزوجتـــه لا يشربان الكحول ولا يتناولان لحم الخنزير، أجاب الدكتور هادفيلـــد بـــأن هناك لحم بقر أما الشراب فلابد منه قبل تناول الطعام، وطلب من كبيـــر أمناء الكلية جلب علب بيبسي أو عصير، أجابه كبير الأمناء بأن الموجود على المائدة وفي المطبخ هو الخمر فقط عندها طلب الدكتور هادفيلد منه

جلب شراب مرطب من خارج الكلية. ذهب كبير الأمناء لمدة عشرة دقائق وعاد بدون أن يجلب الشراب الخفيف وسأل الدكتور هادفيلد: سيدي من سيدفع ثمن الشراب؟ أجابه الدكتور هادفيلد ضاحكاً ومحرجاً ضع الحساب على قائمة رئيس الكلية البروفيسور ألان بارك الذي كان قادماً في نفس اللحظة وأيد ذلك ضاحكاً: بعدها تم جلب ثلاث علب بيبسي من قبل كبير الأمناء وقام الدكتور أياد وزوجته والدكتور هادفيلد بشربها مسرورين لطرافة الموقف.

السهو بالقسم

ذكر الدكتور ثابت حسن ثابت الأستاذ السابق في قسم الأشعة- كلية طب الموصل- ولد سنة ١٩٢٨) أنه في إحدى حفلات التخرج لجامعة الموصل قام عميد كلية العلوم بقراءة قسم التخرج لكلية الطب على طلبة كلية العلوم سهواً. وأدى ذلك إلى حرج كثير وتهكم من الحاضرين بسبب الخصوصية المعروفة لقسم خريجي كلية الطب (قسم أبقراط).

أول عملية ديلزة سنة ١٩٧٤

من النوادر التي ذكرها المرحوم الدكتور حامد سليمان: عمل ديلزة لأول مرة في الموصل سنة ١٩٧٤ لطفل اسمه أكرم عمره خمسة سنوات كان يشكو من مرض عجز الكليتين نتيجة انحلال كريات الدم الناتج عن حساسية الباقلاء Favisim. وبعد عمل الديلزة البرتوانية تحسنت صحته ورجعت الكليتين إلى عملها الطبيعي وعاش الطفل بصحة جيدة وأكمل دراسته حتى حصل على شهادة Ph.D. في الكيمياء.

فنجان قهوة

يقول الدكتور زين العابدين عبدالعزيز الأستاذ بكلية طب الموصل- ولد سنة ١٩٥١) بعد كتابة الوصفة ((قلت لمريض: خذ هذا الدواء بكمية فنجان قهوة ثلاث مرات يومياً، فقال: دكتور القهوة حلوة أم مرة ؟!

معالجة السرطان ونقل الدم والتخدير أيام زمان

ذكرت المرحومة الدكتورة شفيقة الملاح طبيبة الأمراض النسائية (١٩٢٦- ٢٠٠٧) أنه في الستينات من القرن الماضي:

- إن معالجة المريضات المصابات بالسرطان كان يجري بمكعبات الراديوم أو أقلام الراديوم في شعبة الأشعة والتي تحمل للمريضة مدة ٢٤ ساعة ثم ترفعها.
- إن نقل الدم عند الحاجة إليه دائماً كان من المجانين ولاقينا ما لاقينا منهم.
- لقد كان المضمد يعطي التخدير ونحن نراقب ونتحمل المسؤولية في التخدير العمومي، أما القطني فكنا نقوم به بأنفسنا، وقد لا يصدق أننا في بعض الأوقات كنا نستعين بالعامل أو الممرضة زابيل العجوز الصامتة الطيبة رئيسة صالة العمليات الكبرى.

حالات هستيريا

وكتب الدكتور شيت أحمد حسن عجانة (طبيب الأمراض النفسية- ولد ١٩٤٧).

- مريضة في منتصف عمرها أحيلت إلى الشعبة النفسية على أنها في حالة هستيريا ولكنها فقدت الحياة أثناء الفحص.

- مريضة شابة مصابة بإغماء أحيلت إلى الشعبة النفسية كحالة هستيريا ثم تبين أنها مصابة بداء السكر.
- ثلاث مرضى عولجوا بالصدمات الكهربائية خلال سنة واحدة ثم تبين إصابتهم بورم في الدماغ.
- مريضة شابة شخصت متمارضة وبقيت تنتقل من طبيب إلى آخر إلى أن ماتت ببطء.

معالج البشر يعجز عن معالجة البقر

روى الدكتور عبدالحميد الصائغ (الأستاذ في كلية طب الموصل سابقاً- ولد ١٩٤٢). بأنه كان له زميل عربي تخرج من نفس الدورة التي كان فيها وحدثه عن تجربته في إحدى الدول.. استدعي لمعالجة بقرة أحد المتنفذين هناك..!! وعندما اعتذر عن ذلك قيل له كيف تستطيع معالجة البشر ولا تستطيع معالجة البقر؟

مرضى لديهم ثلاث كلى

كتب المرحوم الدكتور عبدالحكيم محمد زكي عبدالباقي (الطبيب الممارس/ ١٩٢٧- ٢٠١٠).

- بعد استئصال كلية لشاب عام ١٩٥٩ أخذت له أشعة ملونة تبين أنه بجانب الكلية قد أهداه الرحمن كلية مع الحالب تصب في المثانة فاعتبر هذه آية من الله.
- بعد استئصال كلية لشابة أخذت لها أشعة ملونة تبين أن لها كلية ثانية مع حالبها تصب في المثانة وذلك عام ١٩٦٨.

شريان تاجي إضافي

ذكر الدكتور عبدالحكيم محمد زكي أيضاً: في عام ١٩٧٩ في جامعة أوهايو كلية الطب في الولايات المتحدة الأمريكية اتضح بعد أخذ تخطيط لمريض عربي (كهل) أتضح أنه مصاب بالذبحة الصدرية في البطين الأيسر، ولما سئل: هل تشعر بألم في القلب؟ فأجاب بالنفي فأجريت له عملية القسطرة في القلب فتبين أنه لما كان جنيناً في رحم أمه قد أهداه الله شرياناً يصل بين الشريان التاجي الذي يغذي البطين الأيسر والشريان التاجي الذي يغذي البطين الأيمن وهذه آية من آيات الله.

الميت الذي تحرك

ذكر الدكتور عبدالرحمن عبدالعزيز الشهواني (رئيس قسم جراحة الأطفال- كلية طب الموصل- ولد ١٩٥٢) في أول خفارة ليلية كطبيب خفر حديث التخرج جاءني مريض راقد علي سديه وكان متوفى وعند فحصه أخبرت الأهل بأنه متوفى فحصلت مشادات كلامية بين الرجال الذين جلبوا المريض وآخرون أنه توفي بعد حصول شجار ومشادة كلامية فطلبت إرساله للتشريح لتبيان سبب الوفاة إلا أنني أخبرت بأن المريض قد تحرك وتنفس بعد أن أحاطت الشرطة بالجثة، وكانت صدمة كبيرة لي فرجعت لفحص المريض على ظهر سيارة بيك آب وتأكدت من الوفاة وأخبرتهم أنه متوفى، لكني بقيت مصدوماً حتى تأكدت من الوفاة بعد انتهاء التشريح بعد مرور خمس ساعات وقررت أن لا أخبر بوفاة المريض إلاّ بعد فحص دقيق وطويل.

المحرار الشافي

روى الدكتور عبدالرزاق أيوب السلطان طبيب الأطفال (١٩٤١-٢٠١١) أن أحد الزملاء نسي المحرار تحت إبط أحد الأطفال عند فحصه، لكن والد الطفل أرجعه في اليوم الثاني مع إطراء وشكر على معالجة الطفل بواسطة المحرار.

دائرة الطابو

روى الدكتور عبدالقادر طابو الأستاذ في قسم الأشعة كلية طب الموصل- ولد ١٩٣٨). عندما كنت طالباً في كلية الطب في الستينات كان أهلي يسكنون في ناحية العزيزية لواء الحلة وكلما كنت احتاج مبلغاً من المال كنت أقوم بإرسال برقية إلى والدي أكتب فيها- لاختصار الكلفة- اسم والدي والناحية وطلب بإرسال مبلغ من المال (عزيزية.. طابو. أرجو إرسال حوالة مالية) حيث كان والدي معروفاً لدى مسؤول بريد الناحية وبعدها يصلني المبلغ. وفي إحدى المرات تأخر وصول المبلغ وبعدها جاءني الرد من بريد العزيزية برقياً (لاتوجد دائرة طابو في العزيزية) وعندما رجعت إلى أهلي وسألتهم، ظهر أن مسؤول البريد قد تغير وكان المسؤول الجديد لا يعرف والدي واسمه لذلك ظن بأنني أخاطب دائرة الطابو وليس والدي (طابو عزالدين).

المستأجر والطبيب

ذكر الدكتور عطا الجماس (طبيب الأسنان- ولد ١٩٣٠) عندما كان مديراً للمستشفى العام، أنه صادف أن دخل رجل استعلامات المستشفى العام وبيده وصفة طبية من أحد الاختصاصيين واصفاً فيها مراجعته لذلك الاختصاصي الذي يعمل في الطابق الرابع فأرشدته موظفة الاستعلامات

بقطع بطاقة مراجعة بمبلغ ٢٥ فلس ويتم مراجعة الطبيب المقيم الأقدم في العيادة الاستشارية وفعلاً ذهب الرجل إلى قاطع التذاكر ووقف في طابور طويل الذي اكتظت بهم بوابة غرفة المقيم الأقدم وبعد أكثر من ساعة جاء دور الرجل فدخل فقال له المقيم الأقدم اضطجع على السرير فقام الطبيب بفحص المريض وأخبره أن عليه أن يقوم بفحوصات مختبرية وشعاعية فخرج الرجل منزعجاً وتوجه إلى الاستعلامات وعلامات الغضب بادية على وجهه قائلاً بصوت عالٍ أنا لست مريضاً ولست بحاجة إلى فحوصات أنا جئت لأدفع إيجار الدكان فصاحب الدكان هو الطبيب الاختصاصي الذي يعمل في الطابق الرابع ولصعوبة الدخول إلى المستشفى العام قام الاختصاصي بتزويدي بهذه الوصفة.

مصدر السائل الشوكي

ذكر الدكتور غانم يونس الشيخ (عميد كلية طب تكريت سابقاً- ولد سنة ١٩٤٧) لايؤدي دائماً التدريس إلى النتيجة المرجوة منه، وهي حصول عملية التعلم لدى الطالب وخصوصاً أثناء المحاضرة مما يتطلب المحاورة الدائمة بين المعلم والمتعلم. ففي إحدى المحاضرات عن عملية سحب السائل النخاعي الشوكي وبعد شرح طويل عن مكان إجرائه وكيف تمر إبرة السحب في طبقات متعددة بين الفقرتين القطنيتين الثالثة والرابعة وقبل الخروج من المحاضرة خطر لي أن أسال أحد الطلبة عن مصدر السائل الذي يسحب فقال دون تردد: إنه يسحب من القناة المركزية التي تتوسط النخاع الشوكي.

الطالب المكمل

كتب الدكتور فاضل عباس الحمامي المدرس في كلية طب الموصل- ولد ١٩٤٧ كان طالب معي في الصف الأول كلية الطب سنة ١٩٦٥ وكان مكملاً في مادة البيولوجي، فذهب إلى أستاذ المادة وهو هندي الجنسية وقال له:

Dr. will you succeed me because I have family in my neck ?

الجراح الذي وقع في حرج

كتب المرحوم الدكتور كمال يونس شريف إختصاصي جراحة الصدر (١٩٢٨- ٢٠٠١) حينما كنت في أمريكا لدراسة جراحة القلب والصدر أجرينا عملية فتح القلب لرجل عجوز وأبدلنا له الصمام الإكليلي والصمام الأبهر ولكن القلب توقف عن الخفقان بالرغم من محاولتنا إعادته للحياة، فطلب الجراح الأقدم مني أن أخيط الصدر وخرج إلى أهل المريض وأخبرهم بموته فخطرت في بالي أن أعطي للمريض محاليل تعادل حامضية الدم ففعلت وبدأ القلب يخفق ودخل الجراح الأقدم وقال: ماهذا قلت: أعطيته محاليل قلوية ورجات كهربائية فعاد القلب للحياة فقال: كيف أواجه ذوي المريض وقد أخبرتهم بموته؟ وكانت ساعة حرجة على الجراح.

طبيب أسنان رغماً عنه

كتب المرحوم الدكتور نافع الخياط (الطبيب الممارس ١٩١٤- ١٩٩٤) يقول: دخلت في أحد الأيام امرأة عجوز إلى عيادتي وطلبت مني خلع أحد أسنانها وكان هذا قبل حوالي أكثر من (٤٠) سنة فأجبتها بأني طبيب باطنية ولست طبيب أسنان ونصحتها بالذهاب إلى أحد أطباء الأسنان المعروفين آنذاك ولكن العجوز رفضت وألحت علي بأن أقوم بذلك، فطلبت منها فتح فمها لكي أرى السن وعندما فتحت المريضة فمها

وحاولت معرفة السن المصاب بالطرق على الأسنان سقط السن من حاله ففرحت العجوز وأخذت تدعو لي بالصحة وتقول: بأنها لم تشعر بأي ألم، وذهبت وهي سعيدة، ثم عادت بعد فترة وقالت: دكتـــور أريـــد منـــك أن تصنع لي طقم سن ذهب بدلاً من الذي سقط وبأي سعر تريد.

طلقة في الرأس

ونادرة الدكتور نزار نوري الخليفة إختصاصي طب المجتمـــع- ولـــد سنة ١٩٥١، أنه في سنة ١٩٧٥ خلال خفارته فـــي الردهـــة الجراحيـــة جاءت امرأة برفقة ابنها الصبي (١٤ سنة) مدعية أن رصاصة اخترقـــت جبينه ولم تخرج، وكان الصبي أمامه يمشي معها وبكامل وعيه وصحته باستثناء إحساسه بحرارة في الرأس فقط، وبعد التأكد من فتحة الـــدخول وعدم وجود فتحة خروج أرسل الصبي لأشعة الرأس وتبين صحة ادعاء الأم، حيث تبين أن الرصاصة مستقرة في الجزء الخلفي للـــرأس تمامـــاً تحت عظم القحف (مسار الرصاصة لم يكن من خلال الدماغ وإنما بـــين أغشية الدماغ وعظم القحف) وتم إخراج الرصاصة من تحت العظم وعاد المريض للبيت سالماً معافى.

تخطيط القلب بالنيابة

ذكر الدكتور نكتل إبراهيم، إختصاصي طب المجتمع- ولد سنة ١٩٥١ أنه عندما كان يعمل في شعبة الأمراض الباطنية والقلبيـــة فـــي العيـــادة الاستشارية لمستشفى الموصل التعليمي حدث أن راجعه رجل كبير السن بصحبة ابنه الشاب وبعد أن فحصه طلب إجراء فحص تخطيط القلب في الغرفة المجاورة فإذا به يقول لابنه اذهب واعمل لي تخطيط القلب وأنـــا سأجلس انتظرك هنا عند الطبيب.

منطقة الحالب بالمصلاوي

روى الدكتور محمود عبدالهادي الجراح الأختصاصي- ولد سنة ١٩٤٨) هناك طرفة أو نادرة ما أزال أتذكرها عن أستاذي الجليل الفاضل د. نزار طه مكي بارك الله فيه وأدامه. حدث أن فاجأني يوماً أثناء التجوال اليومي في الردهة بسؤال أن أصف له منطقة الحالب بالمفهوم الموصلي فقلت: بأنها المنطقة المغبنية بالمفهوم الطبي. فضحك من أعماقه- وكأنه عاب علي ذلك وأنا مقيمه الأقدم- وقال: كيف أن الحالب هو الخاصرة؟ فقلت له ليس جميع أهل الموصل أطباء درسوا التشريح. فلم يزده ذلك إلاّ أن استمر في ضحكه وكما هو معلوم أن جزءً عزيزاً منه هو موصلي النشأة.

الكلام عن إسبانيا

روى المرحوم الدكتور مؤيد يونس الطائي أستاذ الطب الباطني/ كلية طب الموصل (١٩٤٨- ٢٠٠٣) كنت أستقل القطار المتوجه من أدنبرة إلى لندن وأنا جالس في أحد المقطورات أتأمل صورة ملونة اشتريتها لجامع غرناطة بأسبانيا حتى أرسلها للوطن، وإذا بإحدى المسافرات العجائز تبدأني بالكلام عن اسبانيا بحرارة ووصف دقيق وكلما هممت بالكلام لأقاطعها وأقول لها بأني من العراق، لاتعطيني المجال لذلك، وفوضت أمري إلى الله بالإصغاء التام إلى نهاية الرحلة، وحينها قلت لها: أشكرك يا سيدتي على هذه المعلومات الواسعة عن اسبانيا والتي لولاك لما كنت عرفتها!

السكران

كتبت الدكتورة نادية الشكرجي المدرسة في المعهد الفني بالموصل- ولدت سنة ١٩٥٦) في أحدى خفاراتي الليلية أثناء إقامتي الدورية في العيادة الخارجية لمستشفى السماوة والساعة حوالي الحادية عشرة ليلاً جاءني سكران وطلب بإصرار أن أجري له عملية جراحية لإزالة فألول في أصبعه ولم تنفع محاولاتي لإقناعه بأنها حالة غير مستعجلة، قلب العيادة رأساً على عقب بصراخه ولم تنته القصة إلا بتدخل الشرطة حيث كبلته وسحبته خارجاً.

الاختصاصي المزيف

ذكر الدكتور نبيل عبدالله خطاب الأستاذ في كلية التمريض/ جامعة الموصل ولد سنة ١٩٥٦ ادعى أحد الزملاء أنه الاختصاصي الذي يجلس في عيادته لكي يكسب المرضى وكانت النتيجة أن حصل على مالا يتمناه من أشخاص يطالبون بدين لزميله الذي أخذ شخصيته.

ليش ما تعغف وحدا

كتبت المرحومة الدكتورة وهبية الساعاتي طبيبة الأمراض النسائية (١٩٣٠- ١٩٩٦) قائلة: زارتني مريضة في أول عهدي بافتتاح العيادة الخاصة وبعد السلام أردت أن أسألها عن بعض الأشياء التي تسأل في مثل هذه الحالة (اسمك؛ عمرك؛ عدد أولادك.. الخ) فما كان منها إلا أن سحبت والدتها وقالت لها:

(قومي تغيد تعغف عني كل شي. إذا هي طبيبة شاطغة ليش ما تعغف وحدا).

عملية فتح الرغامى على ضوء الفانوس

ذكر الدكتور الجراح اللواء يونس حسين المولود سنة ١٩٣٣ أثناء تنظيم إخلاء الجرحى في الشمال بمرافقة العقيد الطبيب حكمت قوزميوس وعلى جبل سبيلك تساقطت القنابل بكثافة علينا وسقط جرحى من حوالينا قمنا بإجراء عملية فتح الرغامي على ضوء الفانوس يوم ١٩٧٤/١١/٢١ في مقر اللواء.

المضمد المعتدي

وذكر الدكتور يونس حسين أيضاً: أنه عند فحص مريض في العيادة الخارجية في المستشفى العسكري سنة ١٩٦٥ يشكو من مرض البواسير، نهض يبكي ويقول: دكتور... المضمد اعتدى علي. سألته: كيف؟ أجاب: أدخل حديدة في أسفلي قلت له: هذا فحص بالناظور الطبي وأنا الذي فعل ذلك، أجاب: دكتور أنت شريف ولا يمكن أن تفعل ذلك.

ملقط عمليات في بطن مريضة لمدة ٨ سنوات

تكلم الدكتور أديب الفكيكي في كتابه تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث عند الحديث عن المرحوم الدكتور محمود إبراهيم المولود في الموصل سنة ١٩١٠ عن أهم ذكريات الدكتور محمود إبراهيم، حيث يقول الدكتور محمود:

عندما كنت رئيساً لصحة لواء الحلة (بابل) عام ١٩٣٨، جاءت إلى المستشفى مريضة تشكو من آلام في البطن مع إستفراغ ولدى فحصها من قبلي وجراح المستشفى تبين لنا أنها مصابة بانسداد حاد في الأمعاء وبعد إجراء الإسعافات الأولية وتحسن صحتها بدأنا بجمع المعلومات عن الأسباب، وهنا تذكر مضمد غرفة العمليات أنها كانت قد راجعت

المستشفى في عام ١٩٣٠ تشكو من نزيف رحمي، وأن رئيس الصحة آنذاك وهو أجنبي أجرى لها عملية استئصال الرحم وفور انتهاء العملية وجد أحد الملاقط ناقصاً، فأخبر الجراح بذلك إلا أنه لم يصدقه، ونقلت المريضة إلى سريرها أخرجت بعد مدة من المستشفى ولكن كانت بين حين وآخر تراجع الجراح المذكور لأنها تشكو من آلام في بطنها، فكان يعطيها الأدوية المسكنة حتى أنها اضطرت إلى مراجعته في مدينة الموصل بعد أن نقل من الحلة، وقد أيدت المرأة ذلك وقالت أنها صرفت أموالاً طائلة حتى أصبحت لا تملك شيئاً بعد أن كانت ذات مال فأصبحت تعمل خادمة في البيوت. لقد طلبنا من المرأة إجراء عملية استئصال ورم في الجهة اليمنى من بطنها إلا أنها رفضت فطلبنا إليها السفر إلى بغداد لإجراء الفحص الشعاعي لعدم وجود جهاز أشعة في ذلك الوقت في الحلة فطلبت إمهالها بضعة أيام، ولكن بعد ثلاثة أيام راجعنا من كانت تعمل عنده طالباً إعطاءه شهادة الوفاة لأنها أصيبت بنوبة ثانية أدت إلى وفاتها. رفضت إعطاءه شهادة إلا بعد إجراء التشريح، وعند فتح البطن عثرنا على ورم مسبب من إلتصاقات وانسداد في الأمعاء وعند استئصاله وفتح جزء من الورم عثرنا بداخله على الملقط الذي كان قد ترك في بطن المرأة بعد العملية وبقي ٨ سنوات، فرفعت تقريراً بالحادثة إلى مديرية الصحة العامة وأرسلت مع التقرير الملقط والورم طالباً إجراء ما تتسبه المديرية حيث أن الطبيب المذكور كان قد غادر العراق منذ مدة.

آكل البرغل

روى الدكتور عيسى سرسم المتوفى في مطلع التسعينات أنه أخبر صديقه الدكتور كربيت والمتوفى أيضاً في مطلع التسعينات يوماً، وبعد التحية يقول: قلت له باستغراب، أخبرني كيف تسنى لك أن تعرف أن المريض (الذي هو من زبائني) والذي راجعك البارحة عصراً بأنه قد

تغذى طبيخ برغل؟ حيث كنت البارحة في سفر.. وعندما لم يجدني راجعك. واليوم جلب أحد أولاده عندي ومدحك قائلاً: إن الدكتور كربيت أيضاً طبيب جيد، حيث عرف حتى أنني قد تغذيت البرغل. وبعد أن ضحك الدكتور كربيت ملء شدقيه قال: لقد وجدت بعض حبات البرغل بين طيات ردائه.

مريض البواسير

روى لي المرحوم الجراح الدكتور عبدالوهاب حديد المتوفى في مطلع التسعينات أنه في أحد الأيام بينما كان في السوق إذا بشخص يسلم عليه بحرارة ثم يسأله عن ألم يشعر به عند التغوط وأنه يشك من إصابته ببواسير الشرج، وبعد أن سأله الدكتور عبدالوهاب بعض الأسئلة حول شكواه، قال المريض: ولكن كيف لي أن أعرف سبب ذلك؟ قال له الدكتور: إذا تريد تمدد وأكشف عن سوأتك في الشارع لكي أفحصك وبذلك يمكن تشخيص مرضك. فخجل السائل وشعر بسذاجة طلبه.

لبس سترة غيره

من عادة الجراحين تعليق ملابسهم الخارجية في غرفة الاستراحة ولبس ملابس العمليات، ففي أحد الأيام كان الدكتور عبدالوهاب حديد والدكتور عبدالله سرسم (المتوفيان في أواسط التسعينات) يقومان بإجراء عمليات لمرضى في صالات عمليات مختلفة، وصادف أن أنهى الدكتور عبدالله سرسم العملية قبل الدكتور عبدالوهاب حديد، وقام بتبديل ملابس العمليات ولبس ملابسه، وخرج وعندما أراد أن يفتح سيارته لاحظ أن المفتاح لا يفتح فأرسل أحدهم إلى غرفة استراحة العمليات ضناً منه أن أحد الزملاء وضع مفتاح سيارته في جيب سترته وأخذ مفتاحه، وعندما جاء الساعي إلى الغرفة كان قد خرج الدكتور عبدالوهاب من غرفة

العمليات ووجد سترته غير موجودة وعندما ذكر الساعي ما قاله الدكتور عبدالله، قال له الدكتور عبدالوهاب خذ سترة الدكتور عبدالله وأعد لي سترتي فقد لبس سترتي سهواً.

وصفة المرأة للطفل

يروى عن الجراح الدكتور عبدالله سرسم المتوفى في أوائل التسعينات أنه كان يدخل غرفة الفحص أكثر من مريض ويقوم بفحصهم واحداً تلو الآخر، ثم يجلس ويكتب لهم الوصفات جميعاً مرة واحدة. وكانت الأمور تمشي بسلاسة حتى مضت السنين فعندما بلغ من الكبر عتياً، في إحدى المرات قام بفحص طفل وامرأة وعندما كتب الوصفات وضع سهواً اسم الطفل على وصفة المرأة وبالعكس. وعندما ذهبوا للصيدلية لأخذ العلاج، استغرب الصيدلي كيف يصف علاجاً نسائياً لطفل، فقام بمكالمة الدكتور عبدالله بالهاتف، وفي برود قال للصيدلي صلح الأسماء فقد حصل سهو، وأعط الطفل العلاج المكتوب في وصفة المرأة.

الجلوس على صحن القيمر

يروى عن الدكتور عبدالله سرسم أيضاً أنه ذهب صباح أحد الأيام لشراء مستلزمات الفطور، فاشترى صحن قيمر وجلب الصحن إلى السيارة ووضعه محل السائق، وذهب بعد ذلك لشراء الخبز وعندما عاد بالخبز وضعه في الكرسي المحاذي لكرسي السائق وأراد تشغيل السيارة فجلس على صحن القيمر ناسياً، ولم يستطع القيام لأن ملابسه تلطخت بالقيمر ولكي لا يشمت أحداً به بقي جالساً فوق صحن القيمر إلى أن وصل إلى البيت، فقام بتنظيف السيارة وتبديل ملابسه.

المراجعة

يقول إختصاصي أمراض الأنف والأذن والحنجرة المولود سنة ١٩٤٠ الدكتور نافع محمود شهاب: إن أماً جلبت أحد أطفالها لفحصه من ألم في أذنه، فوصف له العلاج وأعطاها بعض الإرشادات المتعلقة بمرض ابنها، وبعد مضي خمسة أيام جاءته بأخي الطفل المريض قائلة شكراً دكتور لقد تشافى الطفل الذي جلبته قبل خمسة أيام عاشت يدك، ولم أجلبه للمراجعة (علماً بأن المراجعة عادة تكون مجاناً) وأرجو أن تفحص أخاه هذا بدل مراجعة الأول.

الإجازة المرضية

المشهور عن المرحوم الدكتور محمد ياسين الطبيب الممارس أنه كان مستقيماً ولا يجامل أحداً في الحق، لذا غالباً ما كانت تناط به رئاسة اللجنة الطبية لفحص الموظفين والمصادقة على الإجازات المرضية. ففي أحد الأيام جاءه الدكتور (خ) ليصادق على إجازة مرضية له لكونه يشكو من التهابات في الرئة، فصادق على الإجازة المعطاة من أحد أخصائيي الباطنية، وبعد مرور قرابة الثلاث ساعات، إذا بمريض يدخل إلى اللجنة وبيده وصفة من وصفات الدكتور محمود الدبوني (الذي كان يومها في إجازة خارج العراق) وبتوقيع الدكتور (خ)، فيها إجازة مرضية لحامل الوصفة. فما كان من الدكتور محمد ياسين إلا أن رفع سماعة التلفون طالباً عيادة الدكتور محمود الدبوني، وإذا بالدكتور (خ) يرد على النداء وليس الدكتور محمود الدبوني. قال له دكتور الحمد لله على السلامة، علمي بك مريض وفي إجازة مرضية، ويبدو أنك لم تكن صادقاً فيما زعمت، عد إلى المستشفى حالاً لأنني ألغيت إجازتك، وإلا سوف أقدمك إلى لجنة تحقيقية، فما كان من الدكتور (خ) إلا الإذعان والعودة إلى المستشفى وإغلاق عيادة الدكتور الدبوني.

داؤود الجلبي وعامله

للدكتور داؤد الجلبي (الطبيب والعميد والكاتب والمحقق وعضو مجلس الأعيان (١٩٨٩- ١٩٦٠) في عيادته ومع مرضاه قصص ونوادر يتداولها الناس، ومن تلك النوادر ما حصل مع العامل الذي يعمل عنده في العيادة.

ففي أحد الأيام تأخر الدكتور داؤد عن موعده وكان هناك مريض طال عليه الانتظار لأنه من أهل القرى ويريد العودة لأهله سريعاً. فما كان من العامل إلا أن لبس الصدرية البيضاء ونظارة الدكتور وجلس محله، ونادى المريض ليفحصه، والمريض لم يكن يعرف الدكتور داؤود لأن هذه كانت المراجعة الأولى له فتصور أن المنادي هو الدكتور داؤود.

دخل المريض وأخذ العامل يسأل المريض عن شكواه على طريقة الدكتور داؤود بصوت عال وبصيغة الأمر، وكشف بطن المريض وصدره وأخذ يتحسس بيده ومن ثم وضع السماعة في أذنه وقام بتحريكها يمنة ويسرة، وبعد هنيهة أمره أن ينهض، وجلس محل الدكتور وأخذ القلم وكتب على إحدى الوصفات كلمات غير مفهومة وأعطاها للمريض وأرشده إلى عطار يشتري العلاج منه، وبعد أن أخذ منه أجرة الفحص ودعه.

وعند نزول المريض على الدرج تلقاه الدكتور داؤود ووجد في يده الوصفة الحاوية على الألغاز، أخذها واستفسر منه فذكر المريض أن الدكتور بعد فحصه أعطاه الوصفة.

قال للمريض تعال لأعيد الفحص، فقام الدكتور داؤود بفحصه من جديد وأبدل الوصفة. وبعد أن ذهب المريض استدعى العامل وأشبعه ضرباً حتى أوصله إلى الدرج ودفعه دفعة تدحرج بعدها حتى وصل الشارع، ثم نزل وفحصه فوجده مصاباً بعدة كسور، أخذه بسيارته للمستشفى وجبر كسوره وضمد جراحه، وأوصله إلى داره، وبعد شفائه أعاده للعمل عنده شرط أن لا يكرر ذلك مستقبلاً.

الجندي المشلول

ذكر لي الأستاذ مشتاق الدليمي أن أخاه المرحوم الدكتور مطاع الدليمي (مدرس الأمراض الجلدية/ كلية طب الموصل سابقاً، والأستاذ في جامعة باليمور في أمريكا- توفي سنة ٢٠٠٨) حكى له: عندما كنت مقيماً في المستشفى الجمهوري، جيء بجندي من حرب الشمال مشلول ولا يستطيع المشي، وبعد فحصه لم أجد فيه مرضاً، فاستدعيت مسؤول الردهة الطبيب الاختصاص لفحصه، أكد هو الآخر بأنه لا يشكو من أي شيء ولكنه بقي على حاله لا يستطيع المشي. وفي اليوم الثالث أجرينا عملية استئصال الزائدة للمريض الذي يرقد بجانبه، وبعد ذلك مباشرة أخذ الجندي يتلوى من الألم في بطنه، ضحكنا عليه ولكني كطبيب كان واجب علي القيام بفحصه، وعند فحصه تبين فعلاً أنه مصاب بالتهاب الزائدة، فقلت له سنجري لك العملية وإن شاء الله ستشفى من وجع بطنك وسوف تمشي على رجليك.. أجرينا له العملية، وبعدها قام يمشي وكأنه غير مشلول، وذلك لأن شلله لم يكن عضوياً وإنما كان شللاً نفسياً.

غضب الدكتور محمود الجليلي على الدكتور طاهر الدباغ

ذكر الدكتور أديب الفكيكي في كتابه أعلام الطب العراقي الحديث (ج ١ ص ٣٠٦) أنه كانت هناك صداقة تربطه مع الدكتور طاهر الدباغ أستاذ الأمراض الباطنية/ كلية طب الموصل سابقاً ولد ١٩٣٧ حيث عملوا سوية في مستشفى التويثة العسكري. فيقول:

أنهى الدكتور طاهر الدباغ خدمته العسكرية فتوجه للعمل مقيماً في قسم الباطنية في المستشفى الجمهوري بإشراف الدكتور محمود الجليلي. ولم أر الدكتور طاهر إلا بعد أكثر من سنة وفي ليلة مشؤومة حملت فيها والدي رحمه الله إلى العناية المركزة في قسم الباطنية في المستشفى الجمهوري ساعة إصابته بأول نوبة قلبية، وتذكرت الدكتور طاهر الدباغ، فسألت

الخفراء عن الدكتور طاهر، ولم يكن خافراً في تلك الليلـــة، فرجـــوتهم أن يستدعوه من دار المقيمين، وما هي إلا دقائق حتى رأيت الـــدكتور طـــاهر يأتي مهرولاً وآثار النوم بادية على عينيه، فرحب بي وبوالـــدي وانكبـــب يجري الإسعافات اللازمة له ولازمه حتى الفجر إلى أن اطمأن على سلامة الموقف ثم انصرف ليأخذ قسطاً من الراحة. وفي الصباح حضر الـــدكتور محمود الجليلي وبدأ كعادته في زيارة المرضى الراقدين وفحص المرضى الجدد القادمين. وكان الجليلي رعاه الله على معرفة بوالـــدي فـــسلم عليـــه واستفسر عن حاله ثم تمعن في طبلته التي أعدها الدكتور طاهر ليتأكد من صحة الإجراءات التي اتخذت، وخلال لحظات انقلبـــت بـــشاشة الأســـتاذ الجليلي إلى عصبية ظاهرة، وأمر باستدعاء الدكتور طاهر فوراً، فامتثـــل أمامه امتثال الجندي أمام القائد في ساحة القتال. وإذا بالأستاذ الجليلي يوبخه توبيخاً شديداً أمام الأطباء وأمام الطلاب المتدربين، فاستغربت واعترانـــي خوف شديد، فقد خيل لي أن هناك خطأ ارتكبه الدكتور طاهر في نوعيـــة العلاج أو المداخلة، وسرعان ما فهمت السبب، ذلك أن طاهر لم يكن خافراً في تلك الليلة، واعتبر الأستاذ الجليلي تدخله واحدة مـــن الكبـــائر التـــي لا تغتفر، وعبثاً حاول أن يقنعه بأنه هب لمساعدة والد زميله وصديقه وعبثـــاً حاولت أن أقنع الأستاذ الجليلي بأن الذنب ذنبي فأنا الذي أصـــررت علـــى استدعائه إلى الردهة ولكن دون جدوى، وراح العرق يتصبب مـــن جبـــين الدكتور طاهر خجلاً وعلت وجهه حمرة الخجل، وبالغ في تقديم الاعتـــذار إلى الأستاذ الجليلي، وبالغت أنا في الإعـــراب عـــن تحملـــي مـــسؤولية استدعائه، ثم أمره بالانصراف على أن لا يكرر ذلك مستقبلاً.

حتى لا تذهب هدراً

وكتب لي الدكتور زكريا الحبال (الجراح والأستاذ في كلية طب الموصل سابقاً- ولد سنة ١٩٤٧). طرفة عن والده المرحوم الدكتور عبدالستار الحبال الطبيب الممارس لبناني الأصل عراقي الجنسية (١٩٠٣- ١٩٩٥) يقول بينما كنت جالسا معه في عيادته الخاصة في السرجخانه وكان ذلك في بداية الستينات من القرن الماضي... جائه احد المرضى وكان على ما اذكر من احد شيوخ العرب المهمين... وبعد ان فحصه قال له الوالد رحمه الله انه يحتاج إلى إبرة (حقنه) عضلية فقال الشيخ لابأس... وبعد أن قام الوالد بسحب الإبرة طلب من المريض الاستلقاء لزرق الإبرة فإذا بالشيخ ينظر خائفاً من الإبرة رافضا أخذها فقال له الوالد يا شيخ حرام لقد جهزت الإبرة (الحقنة) ولا يجوز تبذيرها وإذا بالشيخ يستدعي بصوت عالي احد مرافقيه من العبيد... دكتور اضرب الإبرة لهذا العبد بدلاً مني...؟ حتى لا تذهب هدراً. ....

المدرر بدل المقوي الجنسي

كتب لي الدكتور محمد جميل الحبال إستشاري أمراض الكلى ولد سنة ١٩٤٥ قائلاً: عندما كنت طبيباً في أربيل جاءني مريض يشكو من الضعف الجنسي، فكتبت له علاج إسمه (Libisex) وهو من إنتاج شركة أدوية سامراء ولكن مساعد الصيدلي أعطاه عن طريق الخطأ (Lasix) وهو مدر للبول قوي كما هو معروف خاصة للشخص الذي تناوله للمرة الأولى حيث لم ينتبه إلى قراءة اسم الدواء بشكل صحيح! أو ربما لتشابه معظم الأحرف بينهما أو لعجلته.

وقد جاءني المريض في اليوم الثاني شاكياً ومعاتباً بحدوث تبول متكرر وشديد طوال الليل حيث قضى معظم ليلته في الحمام! قائلاً: (يا دكتور لقد جئتك لكي تقويني وليس لكي تبولني!) وقد تعجبت من ذلك

وطلبت من المريض جلب الدواء والوصفة للتأكد منهما وتبين لي الخطأ المذكور في صرف الدواء وقد اعتذر الصيدلي عن ذلك بحجة أنه لم يكن موجوداً وأن الذي صرف الدواء هو مساعده الجديد في العمل وليس هو!؟

الضابط والمسدس

يقول الدكتور زكريا الحبال: جائني احد الضباط بزيه العسكري الكامل حاملا مسدسه وكان يشكو من علامات بواسير شرجيه.... فطلبت منه ان افحصه داخلياً فقال خجلاً هل هذا ضروري يا دكتور فقلت نعم.... فقام على استحياء نازعا ملابسه تاركا مسدسه على المنضدة القريبة من سرير الفحص وبعد الفحص الداخلي بالإصبع والناظور قلت له انه يشكو من بواسير داخليه... وتركته ليلبس ملابسه وقمت بكتابة العلاج اللازم وعند خروجه لاحظت انه نسي أن يأخذ مسدسه فقلت يا أخي لقد نسيت مسدسك على الطاولة!... فقال خجلاً وهو يتصبب عرقا... ماذا افعل بالمسدس؟... لقد فحصتني داخليا ولم استطع أن أدافع عن شرفي به فماذا افعل بالمسدس؟ إذ انه لم يفدني في مثل هذا الموقف.

طلب الاهتمام بالحالة

وذكر الدكتور زكريا الحبال: أنه قد جاءه احد المرضى وكان يشكو من الم وعدم ارتياح في منطقة الشرج وقد سبق له أن أجرى عمليتان للبواسير الشرجيه وقد لاحظت ان المريض كان من النوع القلق (الوسواس) ودائم التفكير بحالته الصحية فحاولت ان أطمئنه فقلت له اطمئن... فقال لي يا دكتور لقد راجعت أطباء كثيرين مع عدة عمليات ولم استفد شيئاً فأرجوك أرجوك (ان تضع كل علمك وخبرتك بأسفلي (ط...) !!!!.فقلت له قم لعنك الله.. فقال أنا متأسف لم اقصد هذا ولكن أريدك أن تهتم بحالتي.

أغمي عليه عند سماع العملية

ويروي الدكتور زكريا الحبال قائلاً: جاءني احد المرضى الشباب يشكو من مرض معين وأثناء اخذ تاريخ الحالة الطبية منه رن الهاتف وكان المتكلم احد الجراحين المساعدين من المستشفى يسألني عن حالة مريض لإجراء عملية جراحية له فقمت بشرح ما عليه أن يعمله له من عملية... إلى آخره وفجأة سقط المريض الجالس أمامي على الأرض... فتركت الهاتف سريعاً وقمت بإنعاشه وبعد أن استفاق كليا قلت له ماذا جرى لك؟ فقال يا دكتور لقد أجريت الآن عملية جراحية عن طريق الهاتف وقمت بتشريح المريض... فقلت في نفسي ماذا سيفعل بي الآن وأنا عنده بالعيادة ؟ ولم أجد نفسي إلا مغشيا علي...

المرأة بدل المرآة

ويروي أيضاً طلب من المقيمين الجدد كتابة قائمة بنواقص دار الأطباء المقيمين في المستشفى، فكتب كل ما يعتقد بضرورة تأمينه، فكتب أحدهم بأنه هناك حاجة إلى مرآة، وبعد أن وصلت الطلبات للمؤول عن المشتريات، جاء المسؤول إلى مدير المستشفى شاكياً، يا دكتور تصور أن أحد المقيمين طلب له امرأة، وهل نقوم نحن بتزويج المقيمين، وبعد أن استعرض المدير الطلبات قال له كن دقيقاً في القراءة فإن الطلب هو مرآة وليس امرأة.

الباجچي

بعد أن فحص الدكتور غالب شاكر طبيب الأطفال- ولد ١٩٥٣ طفلاً مصاباً بالإسهال منذ عدة أيام، طلب من والدته إجراء فحص الخروج للطفل، واقترح عليها أن تجريه في مختبر الدكتور أكرم الباجچي، ويبدو أنها تصورت أن الفحص يجرى عند دكان الباجچي، فذهبت إلى إحدى

مطاعم الباجة وطلبت منه إجراء تحليل الخروج، فأجابها صاحب المطعم بغضب بأن ذلك ليس من اختصاصه، فعادت إلى الدكتور غالب معاتبة كيف يرسلها إلى الباجچي، عندئذ أرشدها إلى عيادة الدكتور أكرم.

طبقة البيض فوق السيارة

اشترى الدكتور صبري شيخو طبيب الأمراض القلبية أحد الأيام طبقة بيض ووضعها فوق سطح السيارة وركب السيارة وأدار المحرك ناسياً طبقة البيض، وسار متجهاً للبيت، وبين حين وآخر أخذ يسمع منبهات السيارات التي تمر جنبه أو تمشي خلفه، وعندما تكرر ذلك توقف ليرى ما الأمر فإذا أحدهم يشير إلى طبقة البيض المعلقة على سطح السيارة، فتبسم وأسرع بإدخالها في السيارة.

حتى لا يراك رئيس الصحة

ذكر لي الدكتور عادل البكري إختصاصي الأمراض الجلدية الكاتب والشاعر التراثي المولود سنة ١٩٣٠ أنه عندما كان رئيساً لصحة الكوت، من جملة ما كان يشترط على المرضى (غير العاجزين) هو عدم وجود مرافق معهم وخاصة بعد الدوام الرسمي. وكان المرافقون يتحايلون في سبيل البقاء مع مرضاهم، ومن تلك الحيل أنه في أحد المرات عندما كان يفتش المستشفى ليلاً وجد الشرشف الذي على سرير أحد المرضى من الأسفل يفتح ويسد، وعندما ركز نظره وجد أحد المرافقين تحت السرير وهو يشير له بأن أدخل حتى لا يراك رئيس الصحة.

إلتهاب المعدة

وفي أحد الأيام راجعته مريضة، وعندما سألها عن شكواها أجابت عندي إلتهاب في معدتي قال لها كيف عرفت ذلك، هل راجعت طبيباً قبلي شخص مرضك، قالت لا ولكن إني أعرف أن معدتي قد إلتهبت وسوف أحكي لك القصة.

عندما كنت أقوم بالطبخ وتقليب اللحم، وقعت عيني على قطعة لحم ليست صغيرة، تناولتها لآكلها وقبل أن أمضغها دخلت المطبخ فجأة حماتي، وخشية من تأنيبها بلعتها من دون تقطيع ومضغ، فالتهبت معدتي.

إصرار على الدخول في المستشفى

وقال الدكتور عادل البكري أيضاً عندما كنت رئيساً لصحة الموصل جاءني المرحوم الدكتور محمد ياسين (طبيب الأمراض الباطنية) في العيادة الخارجية ومعه إحدى المراجعات، قال دكتور إن هذه المراجعة تصر أن تدخل المستشفى اليوم وهي لا تشكو من شيء، سألها هل تشكو من ألم أو مرض؟ قالت لا، ولكن يجب أن أدخل المستشفى، قال لها لا يمكن إدخالك من دون سبب مرضي، قالت ولكن أين أذهب وإني قد خاصمت حماتي وتركت البيت، وأريد المبيت في المستشفى حتى يأتي زوجي غداً ويعيدني للبيت. فما كان منه إلا أن سمح لها المبيت في المستشفى كعمل إنساني وحفظاً لسمعة المريضة.

تزوج أختها

يقول اختصاصي أمراض العيون الدكتور إسماعيل قيدار الجليلي إختصاصي أمراض العيون والمهاجر في إنكلترا أنه قام بمعالجة الفلسطينيين في الأرض المحتلة لمدة سنتين. ووجد أن هناك عدد من المرضى مصابين بعمى الألوان، والسبب كثرة زواجهم بالأقارب، فقام بإلقاء محاضرات توعية وتقديم نصائح حول أن هذا المرض وكونه وراثي ويكثر بين زواج الأقارب، وأكد على ضرورة الزواج بالأباعد لتقليل إحتمال الإصابة بهذا المرض.

وقبل أن ينهي السنتين بقليل جاءه أحد الأشخاص مبتسماً، وقال بناء على نصائحك طلقت زوجتي لكي لا يصاب أولادي مثلي بعمى الألوان، قلت له من تزوجت؟ فأجاب بكل اعتزاز تزوجت أختها. قلت له كأنك لم تعمل شيء لأن أختها لا تختلف عن زوجتك من ناحية توريث هذا المرض، وهناك احتمال إصابة أطفالك من الأخت بنفس النسبة. وقد خيبت آمالي لأن نصائحي لم تفدك بشيء.

الفصل الثاني

طرائف وأحداث حدثت معي بعد التخرج

عملة ألمانيا الشرقية

خلال سني الدراسة الست، كنت قد وفرت من مصروفي الشهري مبلغاً من المال استفدت منه في عمل جولة سياحية في ألمانيا الغربية والشرقية ولمدة شهر بعد تخرجي في ٢٠- نيسان- ١٩٦١. وعند زيارتي لبرلين وكانت يومها مقسمة إلى شرقية شيوعية وغربية وبينهما جدار برلين، وعندما رغبت الذهاب إلى القسم الشرقي لم يكن يسمح إلا بركوب القطار الذي يسير تحت الأرض (يسمى بالألمانية أوبان)، ركبت القطار وعبرت إلى الجانب الشرقي، ونزلت فيها، وإذا بها مدينة متخلفة وليس فيها سوى شارع واحد فيه عمارات جيدة وأسواق تجارية، وبعد جولة ساعات أردت العودة إلى الجانب الغربي، وعندما أردت قطع تذكرة طلب مني الموظف عملة شرقية ولم يكن عندي سوى عملة غربية ودولار، رفض وقال يجب أن تأتي بعملة شرقية، ولم يكن هناك مصرف لتبديل العملة، وكلما أسأل شخصاً ليبدل لي العملة يخاف من الشرطة السرية، بقيت في حيرة من أمري، وإذا بإمرأة تتقدم وتدفع ثمن تذكرتي، وعندما ألححت عليها أن تأخذ بدل ذلك عملة غربية أو دولار، رفضت، شكرتها على صنيعها عند النزول من القطار في الجانب الغربي وذهب كل منا لحال سبيله.

العريف عكلة

سنة ١٩٦١ دخلنا دورة ضباط الاحتياط دورة خاصـــة مكونـــة مـــن الأطباء، أطباء الأسنان، الصيادلة، الأطباء البيطـــريين. وكـــان مـــنهج التدريب يستوجب التمرين لمدة ٣ ساعات على كيفيـــة المـــشي وحمـــل السلاح وأداء التحية.. الخ. وكان يقوم بتدريبنا العريـــف عكلـــة، وهـــو عسكري بسيط، وكان جهده أن نطيق التعليمات العسكرية بشكل كامل، إلا أن البعض منا كان لا يعير بالاً لتعليماته ولا يطبق الأوامر. لذا في إحدى المرات غضب على فصيلنا وأراد معاقبتنا فقال عليكم جميعاً أن تهرولوا حتى السدة وتعودوا، فما كان منا إلا أن هرولنا حتى السدة وجلسنا هناك حتى نهاية ساعات التدريب وعندما عدنا صاح وزمجر ولكن لطيب فـــي نفسه لم يخبر الضابط ولم نعاقب على ذلك.

شرب الماء

وخلال فترات الاستراحة عند التدريب في دورة ضباط الاحتياط، كنا نعطش ولم يكن يسمح لنا بالذهاب إلى القاعات لذا كنا نتـــسابق الـــشرب بعلبة- معجون الطماطا- قديمة من زير نصف مكسور مخـــضر عائـــد لعمال البناء الذين كانوا يعملون في بناء بعض أقسام الكلية القريبـــة مـــن ساحة التدريب، من غير أن نفكر بالتعقيم والتلوث وكلنا مـــن خريجـــي الكليات التي تعنى بالصحة والوقاية من التلوث والعدوى.

باب الكراج الضيق

بعد التحاقي بالمستشفى العسكري بالموصل سنة ١٩٦٢ كملازم طبيب احتياط، اشتريت سيارة خاصة، وقام أحد الأقرباء بتعليمي السياقة لبضعة ساعات في يومين، وفي اليوم الثالث ذهبت للمستشفى بالسيارة قائداً لها. وعندما وصلت باب كراج المستشفى، ترددت كثيراً في الدخول لأنني لاحظت أن الباب ضيق ولم أستطع الدخول بالسيارة، علماً بأن باب المستشفى كان يتسع لدخول السيارات العسكرية الكبيرة، لذا استدعيت أحد الجنود السواق فأدخل لي السيارة، وبعدها أتقنت السياقة وأصبحت أدخلها دون تردد.

مستشفى بلا سياج

عندما التحقت بمستشفى الأطفال كمقيم بعد إنهاء خدمة الاحتياط سنة ١٩٦٣، كانت بناية المستشفى في محل بناية دائرة الصحة الحالي، ولم يكن للمستشفى سياج وكانت الحيوانات من غنم أو بقر أو حمير تسرح حواليها وحتى في الحدائق بين الردهات، وزارنا الجراح الدكتور هاشم عبدالرحمن في أحد الأيام وعندما شاهد الحيوانات، استغرب وقال لماذا لا تطلبون تسييجها فأخبره المدير بأنه كتب مرات عديدة ولم تخصص مبالغ للسياج. وبعد مرور سنتين زار الدكتور هاشم المستشفى للاستشارة لفحص مريض فوجد الأمور كما هي، وقيل له بأن الوزارة وافقت على تسييج المستشفى، فقال لا أصدق حتى أرى السياج وقال مازحاً في حالة إكماله سوف أركب على السياج وأشرب بطل بيبسي وأهتف بأعلى صوتي بحياة مدير المستشفى. وعندما كمل بناء السياج كان الدكتور هاشم قد نقل إلى بغداد ولم يف بوعده.

تشخيص الحصبة

ومن النوادر التي مرت بي في نهاية الستينات كانت معنا في مستشفى الأطفال طبيبة اسمها (حوة باتيل) وهي من جنوب إفريقيا وتقوم بالتدريس في قسم الأطفال في كلية طب الموصل، في أحد الأيام أرسلت في طلبي لتستشيرني حول طفل مريض وعندما فحصته قلت لها: إنه مصاب بالحصبة وتبين بأنها لم تكن قد شاهدت مريضاً مصاباً بالحصبة خلال دراستها وممارستها لطب الأطفال حتى ذلك التاريخ على الرغم من كونها حاملة أعلى شهادة في طب الأطفال M.R.C.P.

أم الصيفين والشتاءين

وفي نفس الوقت كان معنا في المستشفى طبيب مصري يدرس في قسم الأطفال في كلية الطب أيضاً اسمه (سيد أحمد حسين)، جاءني صباح أحد أيام الشتاء الباردة وهو يرتجف من البرد وقال بلهجة مصرية (يا أخي محمود انتوا بتسموا الموصل أم الربيعين هو فين الربيع بتاعكم الأحسن اتسموها أم الصيفين والشتاءين).

نصف السياك

عندما أنهيت فحص الطفلة بدرية الراقدة عندي في الردهة في مستشفى الأطفال، قلت للأم الريفية البسيطة يمكنك أخذها اليوم للبيت لأنها تماثلت للشفاء، وأردفت مازحاً لا تنسي عند زواجها أن تعطيني نصف سياكها (صداقها)، قالت: تستحق إن شاء الله سوف لن أنسى.

ومرت سنوات إذا بإمرأة تدخل غرفة الفحص في العيادة من دون طفل، قلت لها، إنني لا أفحص الكبار أين طفلك، قالت لست مريضة وإنما جئتك لأفي بوعد قد وعدتك به قبل سنوات، جئتك بنصف سياك بدرية كما وعدتك

فقد خطبت وإن شاء الله سوف تزف بعد أيام. قلت لها: خذي هذا المال هدية لبدرية، وإنني قلت لك ذلك على سبيل المزاح، وليبارك الله زواجها، ولكن هذه المرة لا تنسي أن تجلبي ولد بدرية عندما يرزقها الله بولد إن شاء الله.

سيارة السوبر

في نهاية الثمانينات كان لدي سيارة سوبر ١٩٨٥ بيضاء، وفي أحد الأيام ركنتها على حافة الشارع قرب باب جامعة الموصل لشراء بعض اللوازم، ويبدو أنه جاء شخص آخر وركن سيارته التي تشبه سيارتي خلفها، وعند عودتي أدخلت مفتاح السيارة وفتحت الباب (حيث أن مفاتيح سيارات السوبر كانت تتشابه أحياناً) ولكن فوجئت إذ وجدت لون غطاء المقاعد لونها أحمر في الوقت الذي غطاء مقاعد سيارتي رصاصي، عندها إنتبهت وقفلت السيارة، وانتظرت حتى مجيء صاحب السيارة، وأخبرته بذلك لكي لا يشك بأنني كنت أحاول سرقة سيارته أو سرقة ما بداخلها.

الفصل الثالث

طرائف وأحداث حدثت لطلاب الطب في تركيا

سهولة القبول في كليات جامعة إستانبول

في خمسينات وستينات القرن العشرين كان هناك إقبال للدراسة في مختلف كليات جامعات تركيا وخاصة الفروع الطبية وذلك للأسباب التالية: ١- لرخص الحياة فيها حيث كنا نصرف الليرة التركية بـ (٤٣ فلس) وكان مصرفي الشهري بما فيه الأكل الجيد واللبس الحسن والسكن المتوسط في الشهر حوالي (١١- ١٢دينار). ٢- لسهولة القبول في كليات الطب، حيث لم يكن هناك شرط معرفة اللغة التركية أو تقديم امتحان قبول. ٣- لأن الكليات كانت تقبل حتى الطلبة المتخرجين من الاعداديات من الفروع الأدبية والدينية. ٤- لعدم وجود شرط المعدل العالي في القبول. ٥- لأن النظام في الدراسة كان نظام الفصول، وفي كل فصل كان يحق للطالب أن يمتحن بدرس أو أكثر، وفي حالة رسوبه بأحد الدروس يمكنه الانتقال إلى مرحلة أخرى وإعادة الامتحان ثلاث مرات في السنة ولسنين عديدة فيما بعد حتى ينجح، هذا النظام أعطى الفرصة للبعض من الطلاب ذوي الكفاءات المتواضعة وغير الجادين والمنحرفين الذين انشغلوا باللهو والهوى التخرج بعد سنوات عديدة (على سبيل المثال تخرج أحد زملائنا بعد ١٠ سنوات وآخر بعد ١٣ سنة وثالث بعد ٢٠ سنة من بداية تسجيلهم في الكلية. وبجانب أولئك تخرجت أنا وآخرون من الملتزمين المجتهدين في مدة ست سنوات وبدرجات متميزة).

هذه الأمور دفعت بالعديد من الطلبة العرب (من العراق وسوريا والأردن وليبيا) الاتجاه لدراسة الطب وطب الأسنان والصيدلة والهندسة والاقتصاد والكيمياء فيها، حتى بلغ أعدادهم قرابة السبعمائة طالب في مختلف الفروع .

التعاون بين الطلاب

لقد عشنا سني الدراسة في إستانبول على أحسن ما يرام، ولم نكن نشعر بتعب الدراسة الشاق، والغربة الموحشة، لأننا كنا مجموعة لا بأس بها (قرابة المائتين) من الطلبة من مختلف البلاد العربية، نعيش بشكل مثالي من الألفة والمحبة والتعاون في السراء والضراء، هدفنا النجاح وشعارنا الاستقامة وطاعة الله، فكانت أحلى أيام العمر. والذي يسر وأدام تضامننا تشكيلنا لجاناً من بيننا (كل لجنة مكونة من ثلاثة أو أربعة) أنيط بكل منها واجبات. لجنة الاستقبال كان واجبهم استقبال الطلبة القادمين الجدد، وكان يتم ذلك عادة ليلاً حيث كان قطار طوروس يبدأ رحلته من بغداد ليصل بعد ثلاثة أيام إلى إستانبول في الساعة الثالثة فجراً فيسهر أعضاء لجنة الاستقبال في محطة القطار دون أن يعيقهم البرد أحياناً، فيستقبلونهم ويأخذونهم إلى فندق مناسب. وفي الصباح تقوم لجنة السكن بالتفتيش لهم عن السكن الملائم والرخيص والسليم من ناحية سلوكيات أصحابها. وبعد استقرارهم تقوم لجنة التسجيل والإقامة بمرافقتهم إلى قسم التسجيل في الكلية التي ينوون الانتساب إليها ثم يرافقونهم إلى دائرة الإقامة ليقوموا بتثبيت إقامتهم. ثم يتم جمع عدد من الطلبة الجدد ويعمل لهم جدول أسبوعي ليقوم أعضاء لجنة تعليم اللغة بتدريسهم اللغة التركية.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن كل ذلك كان يجري خلال العطلة الصيفية أو عطلة نصف السنة، أو أيام العطل الأسبوعية، وبذلك عند ابتداء العام الدراسي يكون الطالب قد تعلم اللغة واستوعب الكثير من أمور الحياة اليومية وأصبح مؤهلاً للدوام في الكلية.

وكان هناك لجنة أخرى مسؤولة عن تأمين وسائل الإيضاح التي يحتاجها طلاب الطب، ففي بداية مادة التشريح يدرس الطالب الجهاز العظمي، وفي المذاكرة الشخصية يحتاج أن يمسك الجمجمة والعظام بيده لكي تثبت لديه معرفة أسمائها وأسماء أجزائها، وكذلك القلب، لذا فقد

ساهم الجميع بمبالغ محددة وتم شراء هيكل عظمي وقلب إنسان موضوع في مادة تمنع تفسخه، وكان كل من له حاجة للدراسة لأي جزء يمكنه أخذه لبضعة أيام. كما قامت اللجنة بشراء مجهر مع شرائح درس علم الأنسجة وشرائح علم الأمراض، كان يستعملها كل من لديه امتحان قريب في تلك المادة. وبقيت هذه الوسائل مشاعة للطلاب جيلاً بعد جيل حتى نهاية السبعينات. وعندما يلاقي أحد الطلاب صعوبة في فهم أحد الدروس يقوم من سبقوه بتدريسه وشرح تلك المادة له لأيام حتى يستوعب الموضوع.

الترفيه والسفرات

ولم نهمل مسألة الترفيه والتمتع بالعطل، بل كنا نقوم بسفرات منها قصيرة لمدة يوم أو ساعات، وذلك بأن يتفق عدد ممن لديهم وقت فراغ ويرومون الراحة، فيركبون إحدى البواخر التي تقوم بنقل الركاب إلى محطات مختلفة عبر البوسفور لمدة ٣-٤ ساعات ويعودون من غير أن ينزلوا منها، أو ينزلوا ويقضوا ساعات في إحدى الكازينوهات أو المطاعم المتناثرة على طرفي البوسفور وفي المساء يعودون.

وفي الصيف كنا نمارس السباحة، ولكننا كنا لا نقوم بذلك في البلاجات العامة لأنها كانت مختلطة بين الرجال والنساء، لذا قمنا بالاتفاق مع صاحب بستان في آخر محطة لقطار ساحل بحر مرمرة في الجانب الأوربي، كنا نضع ملابسنا وأمتعتنا في غرفة عنده وننزل بملابس البحر إلى الشاطئ الذي لم يكن فيه غيرنا، وبعد أن يأخذ التعب منا مأخذه كنا نقفل راجعين.

وأحياناً كنا نذهب إلى سواحل البحر الأسود في بداية البوسفور، وفي أماكن بعيدة عن البلاجات للسباحة.

أما السفرات العامة فكنا نقوم بها في العطلات الطويلة نهاية الفصول الدراسية، وكان لهذه السفرات أيضا لجان، لجنة تقوم بالذهاب إلى المدينة التي في النية زيارتها فيقومون باستئجار أحد الفنادق لمدة (٢- ٣) أيام، شرط أن لا يستقبل أي زبون خلال تلك الأيام، كما يتصلون بالمسؤولين في تلك المدن بغية أخذ الموافقة لزيارة المستشفيات والمصانع المتواجدة في تلك المدن، وكذلك تأمين وسائط النقل. وعند وصولنا الفندق يصبح تحت تصرفنا نقيم فيه صلوات جماعية، وحفلات سمر وتمثيليات ليلاً، وفي النهار نزور المعالم السياحية والمساجد والمستشفيات والمصانع في المدينة، وطبعاً كان هناك لجنة من بيننا تقوم بتهيئة متطلبات الأكل والطبخ.

وهكذا عشنا سنوات ملئها المحبة والسعادة والانسجام، أنستنا ألم الغربة والبعد عن الأهل، وحفظتنا من الانزلاق والانحراف الذي وقع فيه البعض فتعثروا في الدراسة وبقوا يكابدون الفشل لسنوات بعد تخرجنا وعودتنا إلى بلادنا.

العرب والأتراك والإسلام

في نهاية الخمسينات من القرن الماضي كانت توجهات وآراء الأتراك تجاه العرب بين نقيضين، قلة من العلمانيين والمثقفين منهم كانوا ينظرون لنا نظرة كراهية وازدراء حتى أن غلاتهم كانوا ينعتون العرب بالوسخين (بيس عرب) ويسمون الكلب الأسود ب (عرب) وذلك لكون العرب في الحرب العالمية الأولى وقفوا بجانب الإنكليز ضد العثمانيين. بينما على النقيض كان المتدينون وسكان الأرياف في الأناضول والذين يشكلون القسم الأعظم من الشعب التركي يبدون تعاطفهم معنا.

فعلى سبيل المثال في إحدى سفراتنا الجماعية في شباط سنة ١٩٥٩ إلى مدينة برُصة، قمنا بزيارة مسجدها الكبير وبعد أن أدينا جميعنا صلاة

تحية المسجد وسمعوا أحاديثنا مع بعضنا بالعربية، جلب ذلك انتباه الموجودين، فتحلقوا حولنا مستفسرين فلما علموا بأننا عرب أخذونا بالأحضان والقبلات وهم يقولون إن لكم أيها العرب الفضل الأكبر في دخولنا الإسلام وهدايتنا إلى طريق الله المستقيم، فأجدادكم الذين جلبوا لنا القرآن الكريم وأدخلونا حضيرة هذا الدين العظيم، فنقدم الشكر نيابة عن أجدادنا لكم لأنكم أحفاد أولائك المجاهدين الأفذاذ.

الرهبة من قاعة التشريح

في أول درس عملي في علم التشريح في الصف الثاني دخلنا قاعة التشريح التي فيها مناضد حجرية وعليها جثث بشرية، قام الأستاذ المساعد المسؤول عن قاعتنا بتوزيعنا كل ١٢ طالب على جثة .

يقوم كل أربعة بتشريح جزء من الجثة (أربعة لتشريح الرأس، وأربعة لتشريح الصدر والأطراف العليا وأربعة لتشريح البطن والأطراف السفلى، ويتناوبون فيما بعد في الفصول التالية من السنة على تشريح الأقسام التي لم يشرحوها)

وبعد أن اكتمل التوزيع صعد الأستاذ على منضدة صغيرة وبدأ بإعطاء فكرة عامة عن علم التشريح وكيفية القيام بذلك، وقبل أن يكمل الشرح إذا بثلاثة طالبات وطالب واحد وقعوا مغمىً عليهم من رهبة المكان والخوف من الجثث. وبعد القيام بإسعافهم أخرجوا من قاعة التشريح، وألغي فيما بعد انتسابهم إلى كلية الطب ونقلوا إلى كلية الصيدلة (علماً بأن دروس الصف الأول كانت مشتركة بين طلاب كلية الطب وطب الأسنان والصيدلة).

تقبيل يد الأستاذ

وذكر لي أحد زملائنا من الطلاب العرب بأنه عندما أنهى امتحان درس علم الفسلجة، قال له الأستاذ، يقول الإمام علي كرم الله وجهه (من علمني حرفاً صيرني عبداً)، هيا قبل يدي لأنني درستك واستوعبت الدرس واستطعت بجهدك أن تنجح فقام الطالب بتقبيل يد الأستاذ وشكره وخرج مسروراً بنجاحه حيث كان قلقاً وخائفاً من هذا الامتحان.

المجدرة

في بداية ستينات القرن الماضي سكن في شقة في مدينة أزمير التركية ثلاثة طلاب طب (إثنان من الموصل وواحد من حلب). قسموا الأعمال بينهم، كان الطبخ من حصة الموصلي (ع). دفع كل حصته الشهرية المتفق عليها لشراء متطلبات الأكل. كانت وجبات الأكل في الأسابيع الثلاثة الأولى متنوعة لا تخلو من اللحم. وعندما حل الأسبوع الأخير من الشهر شح المال، فما كان من الطباخ إلا أن يقتصد فأصبح يطبخ للغداء يوماً البرغل ويوماً العدس. وعندما تكرر ذلك أعلن الاثنان الآخران العصيان، فما كان من الطباخ في اليوم الأخير إلا أن يعلن بأنه سيطبخ لهم أكلة جديدة، وإذا بهم يكتشفون أن الأكلة الجديدة ما هي إلا (المجدرة) وهي مزيج من البرغل والعدس.

مطعم بدون مشروبات محرمة

كنا قد اخترنا أحد المطاعم القريبة لكلية الطب نتناول الغداء فيه، وسبب اختيارنا له لأنه كان نظيفاً وخالياً من المشروبات المحرمة (البيرة وما شابه). وكانت زبائنه تقل خلال العطلة الصيفية لأن أغلب زبائنه من طلاب الجامعة، فقام صاحب المطعم بإجراء تصليحات وعمل ديكورات

جديدة جعلته في غاية الجمال، ومن أجل أن يسجل مطعمه كمطعم درجة ثانية بعد أن كان مسجلاً درجة ثالثة قام بإدخال المشروبات (البيرة وغيرها) للزبائن. وعند ذلك قاطعنا المطعم وأبلغناه بأننا سوف لن ندخل مطعمه إلا إذا ترك تقديم المشروبات المحرمة. وبمرور الأيام أصبح المطعم خاوياً مما أضطره للرضوخ لمطالبنا فألغى المشروبات المحرمة، عند ذلك عدنا للمطعم وبارك الله له في رزقه.

العدوان الثلاثي

عندما حدث العدوان الثلاثي على بور سعيد في مصر سنة ١٩٥٨ بعد تأميم قناة السويس، هب الطلاب العرب المتواجدون في استانبول وأنا معهم مستنكرين ومنددين إلاّ أن الصحافة التركية لم تعر لنا أي اهتمام وإنما كانت غالبيتها مع المعتدين، حيث أنها كانت تمول بمبالغ طائلة من قبل الجهات الماسونية والصهيونية العالمية. وعلى الرغم من ذلك لم نقف مكتوفي الأيدي وإنما قمنا بجمع التبرعات منا نحن الطلبة العرب، وكان البعض منا يسهر ليلاً لسماع الأخبار من الإذاعات العربية، ويترجمها البعض الآخر للتركية ونعطيها للصحف، فكانت بعضها تنشر ما نكتبه لقاء مبالغ معينة نعطيها من تلك التبرعات وبشكل مختصر وفي زوايا الصحف، بينما ينشرون الأخبار المستقاة من الجهات اليهودية والغربية بعناوين بارزة وفي صدر صفحاتها.

تشخيص بدون وضع السماعة في الأذن

في نهاية درس الباطنية وقبل الامتحان العملي وخلال أيام الامتحان كان ممنوعاً أن ندخل الردهة ونقوم بفحص المرضى والإطلاع على طبلاتهم، إلا أن أحد الطلاب قبل الامتحان بيوم واحد وبواسطة أحد الأطباء المقيمين من أصدقائه فحص المرضى، وكان بينهم مريض مصاب

بفتحة ولادية في القلب، وفي اليوم التالي دخلنا الامتحان وعندما جاء دوره كان قد اختار له الأستاذ المريض المذكور، قال له الأستاذ افحص هذا المريض وأشرح لي تشخيصك لمرضه، وضع الطالب رأس السماعة على صدر المريض ومن فرحه لكونه يعرف التشخيص نسي أن يضعها في أذنيه، وقام بتحريك السماعة التي في رقبته على صدر المريض وكأنه يفحص المريض، ثم أخذ يشرح للأستاذ وبشكل صحيح مرض المريض، قال له الأستاذ تشخيصك صحيح ولكنك راسب وعليك مرة أخرى أن لا تغش وتفحص المرضى قبل الامتحان وعند الفحص لا تنسى وضع السماعة في أذنيك ولا تجب إلا عما تسمعه حقيقة وليس ما حفظته.

ضرب الطالب الإسرائيلي

في الوقت الذي كان عدد الطلاب من مختلف البلاد العربية في كلية الطب يتجاوز المائتين، كان هناك طالب إسرائيلي واحد سيء الأخلاق يتبجح ويقص للطلاب الأتراك مغامراته الغرامية، وأنه فعل الأفاعيل بالبنات الفلسطينيات، ولما تمادى في ذلك قرر إثنان من زملائنا الأبطال (عراقي من الفلوجة وسوري من ألبوكمال) أن يعطوه درساً لا ينساه، ففي أحد الأيام وبينما هو متواجد في صحن الكلية، سحبوه من بين الأتراك وأشبعوه ضرباً وكسروا بعضاً من عظامه وتركوه مضرجاً بدمائه وهربوا. وفي نفس اليوم صدرت الصحف المسائية وفي اليوم التالي الصباحية بمانشيتات عريضة (الطلبة العرب ينفردون بطالب إسرائيلي ويدمونه ويكسرون ذراعه)، قام البوليس بالتفتيش عن مرتكبي الجريمة ولم يستطيعوا الوصول إليهم، فقد تركوا شققهم، اختبأ العراقي في شقتي والسوري في شقة زميل آخر. وشكلت لجنة تحقيقية في الكلية وتقرر فصلهما لمدة سنة، وبعد سنة عادا وأكملا دراستهما وبعد سنتين تخرجا وعادا إلى بلديهما مرفوعي الرأس، واختفى الإسرائيلي ولا نعلم عنه شيئاً، ربما عاد إلى إسرائيل وأكمل دراسته فيها.

البراغي الزائدة

كان زميلنا الدكتور بشير حنون عندما كنا في الكلية يتقن تصليح بعض الأجهزة الكهربائية، وفي أحدى المرات عطل جهاز الراديو الكبير القديم، فقام بتصليحه، وبعد الانتهاء وجد عدداً من البراغي لم يعدها إلى مواضعها في الراديو، وعندما سئل عن ذلك، قال إنها زائدة.

وكلما عطل الجهاز وصلحه ترك عدداً فائضاً من البراغي، حتى حكم على الجهاز بالإعدام حيث لم يتمكن من تصليحه ولم يستطع أحد من المصلحين تصليحه.

ربط جرس الساعة بجرس الباب

ومن اختراعات زميلنا الدكتور بشير حنون هو ربط جرس ساعة التوقيت بجرس الباب، لأنه عندما كان يوقت الساعة قبل ذلك لا يستيقظ هو ومن معه من الزملاء الساكنين من تعبهم وسهرهم في الدراسة، ولكن بعد ربط جرس التوقيت مع جرس الباب ومهما كانوا متعبين وسهرانين يقومون مرعوبين من صوت الجرس فيسد جرس الساعة، فيتخلصون من صوت جرس الباب المزعج.

الزواج من الجدة

استأجر أحد أصدقائنا غرفة في شقة امرأة في الخمسين من عمرها ساكنة لوحدها، وبعد أيام سألناه عن تعامل صاحبة الشقة معه، مدحها وقال إنها تلبي كل طلباته حتى أنها تطبخ له الأكل وتغسل ملابسه وتعتني بتنظيف وترتيب غرفته، وحمد الله على ذلك. ومرت الأيام وإذا بذات الخمسين عند مجيئه تستقبله بترحاب شديد وقد تأنقت ولبست أحسن ما لديها بحيث أنها كانت تبدو وكأنها أصغر من عمرها سنين. كان صاحبنا لا يعير لذلك في أيامه الأولى أهمية، وعندما تمادت بإغراءاتها شعر هو

الآخر بميل نحوها، وكيف لا والشيطان ثالثهما في الشقة، وهو في عنفوان شبابه قد عف نفسه من ارتكاب المحرمات خشية منه تعالى. وفي إحـدى الليالي اكفهرت السماء وزمجر الرعد، فما كان منها إلا أن فتحت بـاب غرفة صاحبنا وارتمت في أحضانه مدعية أنها خائفة من أصوات الرعد، عندها هم بها وهمت به، ولكنه تخلص منها بشق الأنفس، وقال لها إنـه يخشى الله من ارتكاب المعصية ووعدها بأنه سوف يتزوجها بشكل سري، وفي الغد دعا زميلين عنده إلى وليمة من أكلات صاحبة الـدار، وبعـد تناول الغداء قدمت لهم الشاي، وأثناء ذلك قال للزميلين اشهدوا بأنني أريد الزواج من هذه المرأة وردت المرأة قبلت، فشهدوا على ذلك. (علماً بـأن ذلك في نظر الشرع لم يكن زواجاً شرعياً لأنه كما هـو معـروف مـن أركان الزواج الشرعي هو الإشهار وموافقة الولي وهذان الـشرطان لـم يتوفرا) فقد كان يناديها (تيزة بالتركية) وهي تعني خالة أمـام الجيـران وأمام ابنها وحفيدتها البالغة من العمر عشر سنوات. وعندما أبلغه زملاؤه ببطلان زواجه أصر على بقائه معها وعيشه كزوج، عند ذلـك قـاطعوه وقبل المقاطعة شرط أن لا يخبر أحد أهله بذلك.

سعدت العجوز المتصابية معه ردحاً من الزمان، وقـضى صـاحبنا معها وطره حتى تخرجه مصراً على أنه لم يرتكب حراماً، وبعد عودتـه للعراق تزوج زواجاً شرعياً وحج وتاب عما ارتكبه من إثم وخلف ذريـة صالحة، وتوفاه الله في وقت مبكر، نسأله تعالى أن يغفر لنا وله.

إدخال المريض النفسي المستشفى

زخم الدراسة وضغط الغربة كانت سبباً فـي إصـابة أحـد زملائنـا الموصليين بمرض عصبي نفسي جعله يتصرف تصرفات غريبة ويتلكـأ في متابعة دراسته، ومن بين تلك التصرفات الشاذة، عمل له إذاعة داخلية فابتاع بوقاً كبيراً من النوع الذي يوضع على جهاز الكرامـافون، وأخـذ

يقوم بواسطته بإلقاء نشرات الأخبار والأناشيد الدينية وقراءة القرآن مما أزعج الجيران وخشية من أن يبلغ عنه الجيران صاحب الشقة التي كان يسكن فيها استشار بعض الزملاء في الصفوف المنتهية أستاذ الأمراض النفسية، فقال من الواجب جلبه عنده لفحصه وإبداء رأيه، حاولوا معه، لم يقبل الذهاب إلى المستشفى، فما كان منهم إلا أن اتفقوا على أخذه رغماً عنه. ففي صباح أحد الأيام وبينما هو ينتظر الباص ليذهب للجامعة، اتفقوا مع سائق تكسي وأبلغوه بالأمر وركب أحدهم في الحوض الخلفي واثنان منهم أحاطوا به وتقدم السائق وفتح أحد الزملاء الواقفين الباب ودفع الآخر صاحبنا المريض داخل السيارة وسحبه الذي في داخل السيارة وهو يقاومهم (وكأنهم عصابة يقومون باختطافه)، وركبوا جميعاً ولم يتركوه حتى أدخلوه قسم الأمراض العقلية والنفسية عند الأستاذ، استدعى الأستاذ المضمدين، أدخلوه المستشفى، وبعد أن بقي بضعة أيام في المستشفى، عولج وشفاه الله، وخرج من المستشفى من دون أي إكراه، بل بمحض إرادته. ومرت السنين وتخرج صاحبنا وعاد للعراق وفتح عيادة وبنى جامعاً في بغداد، وعلى الرغم من ذلك بقي غير راض عن تصرف أصدقائه بأخذه بالإكراه للمستشفى.

تعلم زرق الإبر

مسألة زرق الأدوية بالإبر درسناه نظرياً في الكلية ولم نطبقه عملياً أمام الأساتذة، وإنما كان كل واحد بالاتفاق مع الممرضين يقومون بالتمرين على ذلك. وكان معنا أحد الزملاء السوريين، مصاباً بفقر الدم وضعف عام، فأعلن بأن كل من يريد تعلم زرق الإبر يسمح له أن يطبق ذلك عليه شرط أن يقوم المتعلم بشراء الإبر التي يحتاجها، فكنا نشتري الإبر التي هو بحاجة إليها ونقوم بزرقها له وبذلك تمرنا على ذلك.

مرضى السكر والحلويات

المصابون بمرض السكر يميلون ميلاً شديداً لتناول الحلويات والنشويات، وعلى سبيل المثال مريضان لا أنساهما، الأول: ذكر لنا أستاذنا عندما كان يلقي محاضرة عن مرض السكري بأن مرضى السكر لديهم رغبة لتناول الحلويات أشد من غير المصابين به وأحياناً لا يستطيعون مقاومة تلك الرغبة، وقال على سبيل المثال أن أستاذه هو رئيس قسم الباطنية يومها والذي كان يدرسهم مرض السكري ويؤكد على وجوب تجنب المصابين تناول الحلويات والنشويات. كان هو مصاباً بالمرض، إلا أن مايدعو للاستغراب أنه بعد وفاته رحمه الله تبين أنه كان في الدولاب عند رأسه علبة من البقلاوة، كان يأكل منها من دون تقيد ومن دون علم من في البيت.

المريضة الثانية: هي المرحومة والدتي، حيث كنت بعد إصابتها بالمرض قد وضعت لها قائمة بما يجب أن تتجنبه من الحلويات والنشويات، وأوصيت أختي بمراقبتها وتطبيق ذلك، فكانت ملتزمة أمام أختي وأمامي، وتشتكي لي عندما كنت أزورها بين يوم وآخر بأن أختي قد حرمتها من بعض الأكلات، وكنت أقول لها بأن تطبق وصيتي حفظاً على صحتك من اختلاطات مرض السكري. وفي أحد الأيام وعلى غير العادة لاحظت بأن الغرفة التي فيها الثلاجة مقفلة، سألت عن السبب، أجابت أختي بأنها لاحظت أن المرحومة تقوم ليلاً بعد أن تطمئن بأن الجميع قد ناموا، فتفتح الثلاجة وتأكل ما تشتهيه وما هو ممنوع عنها.

هذان المريضان جعلاني أفقد الثقة بأغلب مرضى السكر، وأن أشدد بتوصية المحيطين بأمثالهم أن يراقبوهم ولا يكتفون بأقوالهم أنهم ملتزمون بالتعليمات.

الفصل الرابع

طرائف وأحداث حدثت معي أثناء دراسة الطب

الحشرة مصاصة الدماء

في شهر أيلول سنة ١٩٥٥ إستقلينا قطار طوروس أنا والمرحوم الدكتور فاضل الحاج حمادي متجهين إلى إسطنبول لدراسة الطب. وبعد وصولنا ولحين إيجاد شقة لنا للسكن بقينا في فندق متواضع في منطقة (لا للي) لبضعة أيام. وفي الليلة الأولى شعرت بأن الدكتور فاضل كثير الحركة وقلق في نومه، وفي الصباح سألته عن السبب، قال: لقد أشبعت عضا من تلك الحشرة اللعينة وشبعت هي الأخرى من دمي، مشيراً إلى واحدة كان قد قتلها (وعلمنا فيما بعد بأنه هناك حشرة كالدعسوقة تسمى بالتركية (تختا كروسو) تعيش في أنفاق تصنعها في الخشب (خشب الأبواب والأثاث التي في الغرف) تختفي نهاراً وتنطلق ليلاً فتقوم بعض وامتصاص دم من في الغرفة)، قلت له ولكنني لم أشعر بأية عضة. وفي الليلة التالية قام بصب كمية من الماء حول أرجل سريره لكي لا تجد الحشرات السبيل إليه، ولكن الغريب الذي لاحظناه أن الحشرات كانت تتسلق الحيطان حتى السقف فوقه ثم ترمي بنفسها على الدكتور فاضل ولا تقترب مني، مما أكد لنا المقولة القائلة بأن تلك الحشرات لا تعظ إلا من تستسيغ دمه.

طالب الطب البقال

ذكرت سابقاً بأن نظام الفصول وتكرار الامتحانات في الدراسة أعطت فرصة لغير الكفوئين التمادي والتسويف في أداء الامتحانات، فعلى سبيل المثال عندما ذهبت إلى إستانبول وقبل سفري ذكر لي بعض معارفي بأن هناك (فلان الفلاني) يدرس في كلية طب إستانبول منذ أربع سنوات، اتصل به عله يفيدك. وعندما سجلت في الكلية واستفسرت عنه، قيل أنه لازال في الصف الثاني وابتعد عنه فإنه لن يفيدك، ومرت السنين حتى التقينا أنا وهو في الصف الرابع، ثم توالت السنين وتخرجت وقضيت الخدمة العسكرية والإقامة وأصبحت طبيباً لإحدى ردهات مستشفى الأطفال، وفتحت العيادة ومرت السنين، ولم يستطع صاحبنا عبور الصف الرابع لأنه كان مشغولاً بالهوى والشهوات، الأمر الذي دفعه بعد ١٦ سنة من تسجيله في الكلية إلى ترك دراسة الطب والعودة للموصل، فتح له دكاناً في محلة الميدان يبيع الحمص والعدس والبرغل والرز وما إلى ذلك، وكنت أسلم عليه كلما مررت قرب دكانه حتى توفاه الله قبل سنوات في سن مبكرة يرحمه الله.

أستاذ التشريح

في الصف الثاني سنة ١٩٥٧ في كلية الطب وفي أول درس نظري في علم التشريح جاء رئيس القسم لإلقاء المحاضرة وقد كان الأستاذ ضخماً يهابه كل من في القسم من طلاب ومعيدين وأساتذة آخرين، وكان من الحزب الجمهوري وله توجه سياسي ضد حكومة عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا يوم ذاك، وقبل أن يلقي الدرس ابتدأ بنقد الحكومة والأوضاع الاقتصادية السيئة التي كانت تعيشها تركيا وقلة رواتب أساتذة الجامعات، فقال من منكم عراقي، فرفعت يدي وقلت له أنا، فخاطب الطلاب قائلاً، أترون صديقكم هذا العراقي، إنه سوف يتخرج بعد أربع سنوات ويعود لبلده وسوف يتقاضى راتباً أكثر مما أتقاضاه وأنا بدرجة أستاذ ورئيس قسم.

طلب مصحف

وكمثال آخر على الحالة السيئة التي كانت تعيشها تركيا. بعد انتهاء الامتحان الشفهي للفصل الثاني من درس التشريح، سألني الأستاذ المساعد للأستاذ عن بلدي فقلت له بأنني من العراق- الموصل، ثم سأل هل ستسافر في العطلة الصيفية إلى أهلك، فقلت له أجل، فقال لدي طلبين هل بإمكانك أن تجلب لي معك عند عودتك (مصحفاً صغيراً بغلاف جلدي يحمل في الجيب، ومعجون أسنان من نوع أجنبي جيد) وسوف أعطيك ثمنها. وبعد أن قضيت العطلة بين الأهل والأصحاب عدت إلى إسطنبول ومعي طلب الأستاذ وقدمتها له وفي نيتي إعطاؤها هدية وعدم أخذ الثمن، إلا أنه أصر ولم يقبل أخذها إلا بعد أن أعطاني المبلغ الذي كان وقتها مبلغاً زهيداً.

العيد

بينما كنت في الصف الأول في كلية الطب حل رمضان، وبعد أن صمناه وحل العيد حدث كالعادة اختلاف في موعد ابتدائه، فأعلنت بعض البلاد العربية موعد العيد، وأعلنت دول أخرى أن اليوم مكمل لعدة رمضان، وعادة تركيا كانت تمشي على الحسابات المثبت فيها أيام العيد مسبقاً، وحسب تلك الجداول إن اليوم الذي كنا فيه مكمل لرمضان، فوقعنا في حيرة من أمرنا، أرشدنا بعض من نعرفه إلى عالم شيخ جليل صاحب تقوى هو المرحوم الكاتب التركي الدكتور حسن بصري جانتاي، ذهبنا ضحى ونحن صائمون إلى داره حيث كان يسكن قريباً من الجامعة في شقة، وعندما طرقنا الباب، استقبلنا ولما علم مطلبنا، رحب بنا وأدخلنا غرفة المكتبة وكان يتكلم العربية الفصيحة، شرحنا له الأمر وكان صائماً، فسأل هل أنتم متأكدون بأن السعودية والعراق وسورية قد أعلنوا أن اليوم هو يوم عيد، أجبنا بالإيجاب، فما كان منه إلا أن تناول علبة الملبس (المصقول) ووضع واحدة في فمه وقدم لنا أيضاً ففطر وفطرنا، وأبلغنا زملاءنا بأن اليوم يوم عيد دون التقيد بما هو مقرر في تركيا.

الصرصار في الأكل

عندما كنا نتناول طعام الغداء في أحد الأيام في مطعم متواضع قريب من الجامعة، كان يجلس قبالتي احد الزملاء من بغداد، وبعد أن أنهى نصف صحنه من الرز وجد في الأكل جناح صرصار، فقال يا جماعة هذا جناحه، ترى أين باقي جسمه ربما أكون قد أكلته أو أكله احد الزبائن، تقززت نفوسنا وتركنا أكل الرز وتناولنا أكلات أخرى، إلا أن صاحبنا أزاح جناح الصرصار جانباً وأكمل أكل بقية ما في الصحن.

الحكم على الطلاب غير الشيوعيين بالإعدام

بعد فشل حركة الشواف في الموصل سنة ١٩٥٩ وسيطرة الشيوعيين وقيامهم بقتل وسحل الموصليين من المناوئين لعبد الكريم قاسم، توجهت إحدى المظاهرات التي قادها الطلاب الشيوعيون في الإعدادية الشرقية وبأيديهم الحبال باتجاه دار أخي الأستاذ سعيد قاسم (مدرس علم النبات في الإعدادية الشرقية) في الجانب الأيسر من المدينة بغية قتله وسحله، إلا أن الله سلمه حيث كان قد ترك منزله واختبأ في دار خالنا في مكان لا يجلب الشبهة، وعلى أثر ذلك كتب لي والدي المرحوم رسالة يحذرني فيها من المجيء إلى الموصل في العطلة الصيفية تلك السنة حرصاً على حياتي.

وحتى في إستانبول لم نسلم من أذى الشيوعيين الذين كنا نجادلهم ونحتقر أعمالهم الدنيئة في الموصل، فعملوا لنا في القنصلية العراقية قوائم بأسماء غير الشيوعيين وحكموا علينا بالإعدام، ولا أنسى تهديد أحد الطلاب معنا من الموصل حيث قال لي بالحرف الواحد:

(هل ستبقى هنا إلى الأبد وسوف نسحلك حال وصولك الموصل مهما طالت الأيام) وبعد أن ولى دورهم وزالت شوكتهم وتخرجت وعدت للموصل، بقي هو بعدي سنوات حتى تخرج علماً بأننا كنا قد دخلنا الكلية في نفس السنة، وعندما عاد للموصل قام بزيارتي في أحد الأيام في العيادة وكأن شيئاً لم يكن، وطبق قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

دخول كلية الطب بدل الشريعة

ومرت سني الدراسة مسرعة حتى أصبحنا على أبواب التخــرج، كانــت هناك عادة متبعة من قبل اتحاد الطلبة في كلية الطب (جامعة استانبول) بــأن توجه لطلاب السنة الأخيرة مجموعة من الأسئلة (مائة ســؤال) فــي شــتى الأمور لمعرفة ميول واتجاهات وفلسفة الطالب في الحياة والدين والمهنة، ثم يستخلص من الأجوبة خلاصة تعكس شخصية المتخرج، وتعرض الخلاصة على فنان في رسوم الكاريكاتير، ويجلس المتخرج أمام الفنان لبضعة دقــائق فيخطط له رسماً كاريكاتورياً وتثبت الصورة مع خلاصة الأجوبة في البــوم يضم أيضاً الصور الحقيقة للمتخرجين جميعاً مع صور الأساتذة.

ومن جملة ما كتب تحت صورتي الكاريكاتورية التي كانت عبارة عن صورة رجل دين يقرأ القرآن (إن صديقنا الدمث الأخلاق محمود قد دخل كلية الطب خطأ وكان عليه أن يدخل كلية الشريعة... وهو يتمنى أن ينال وطنه الاستقلال الحقيقي... يعرف الحب بالجنون.. ويصف الساكتين عن الحق بالشياطين الخرس.. سوف يسيح العالم بالقطــار ولــيس بالبــساط الطائر.. نتمنى له الزواج السعيد حال تخرجه).

الفصل الخامس

قصص لأطباء الموصل

معاناة طبيب إنساني

في لحظة من اللحظات سنة ١٩٨٦ ضاقت نفسي بالألم وهويت صريعاً تحت مطرقة الإنسانية التي أطلقها واحد من بني الإنسان فرحت أفكر وفي رأسي خواطر يموج بعضها في بعض، أحسست بعدها أنه من حقي أن أقول شيئاً في إنسانيتي كطبيب فأمسكت القلم فكانت هذه الأسطر.

المعاناة قبل التخرج

ظلموك أيها الطبيب

ظلموك يا من سموك إنساني

ولم ينصفوك كإنسان

تعبت منذ أن وضعت خطواتك على الدرب

وارتاح أقرانك منذ ذلك الحين

سعدت بجدك واجتهادك وتفوقك

وسعد غيرك بلهوه ومرحه

قيل لك أنت أهل لأن تكون طبيباً

فصممت على تخطي العقبات

وفشل البعض ممن استهان بكل الواجبات

فترك المتهاونون الدراسة وسلكوا طرقاً مختلفة

ولكنهم لم يشقوا كثيراً. بل كسبوا ونالوا ووصلوا لما يريدون في وقت قصير

– – –

بذلت المستحيل
ولم تقنع أنت بهذا القليل
وتذوقت أنواع التعب وأنت مسرور
تعب الجسم في مسار الطريق
وتعب العين في سهر الليالي
وتعب النفس من حرمانها من مباهج الطفولة والحياة
وقطعت شوطاً في الدراسة بعد طول عناء
واكتفى العديد بذلك الشوط
وتخلفوا وساروا في متاهات أوصلتهم بعد جهد قليل إلى بر الأمان
واستقرت بهم الحال كما أرادوا على خير ما يرام
وآليت على نفسك السير في طريق الأشواك والعثرات
وبتوفيق من الله برزت بين من برزوا في سوق الاجتهاد
وفزت بما يؤهلك لأن تضع قدمك على سلم الطب وبدأت الصعود نحـــو الهدف المنشود
واستحب البعض السهل
وسلكوا الشارع القصير
وغرفوا ما لذ وطاب بعيداً عن الكتاب
ووصلوا إلى مبتغاهم دون كثير من العناء

ـــ ـــ ـــ

وبقيت تصارع الأيـــام
تسهر الليالي الطوال وأغلب الناس نيام
تحفر النفق الطويل بين الصخور
لا تبالي بالعقبات والصعاب
بل كنت سعيداً بها لأنك كنت تعلم أنها وسائل لما بعدها
وانتهى السباق ونلت الجائزة
وأصبحت طبيباً

بل كما يقول الجميع طبيباً إنسانياً
وسعدت بهذا الاسم وأنت عارف بعظم المسؤولية
لأن التخلق بالإنسانية صفة كريمة تنبع من الإيمان الـصحيح وتفـضي
بالفرد أن يتسع ويمتد خارج حدوده الذاتية الصغيرة

المعاناة بعد التخرج

ودفعت بك الظنون إلى أنك قد وصلت بر السلامة
وأنك قد ودعت الشقاء والتعب... كيف لا
وقد فتح الله لك باباً من أوسع أبواب هذه الدنيا
ولـكـن هـيـهـات
لأن من يختار هذا الطريق لن يرتاح من هموم الحياة
ولن يهدأ له بال... ويا لهفي عليك
فإنسانيتك منذ اليوم في حساب الناس مسألة نسبية
بل معضلة فيها الكثير من الطرح والضرب ثم الغلط في النتيجة
تحاز طبائعهم كلها في مهمة واحدة
ليتخلى الكثيرون عن إنسانيتهم
وتصبح أنت الإنساني البحت
أما أن يعترف بك كإنسان... ينوء جسمه بالمشاعر والأحاسيس
فلا... وألف لا
مهما استرجلت المعاني لتقنع شراذم من الناس بانتمائك الإنساني
ومهما سعيت ترتجي مهرباً فقد صدر الحكم
حكم... الحقائق فيه مقلوبة
عليك أن تنفق من حياتك أضعاف ما تكسب لحياتك

إذا استراح الآدميون من عناء العمل فليس لك مكان بينهم
فكم مرة تركت الأكل وأنت في أوله أو وسطه لكي تلبي استشارة مريض
تظهر الرضا وتتجاهل الكدر
لتقوم بإسعاف مريض يستحق الإسعاف لطارئ ألم به
وتكتم غيظك عندما تستجيب لاستشارة من يروم الراحة والكسب
أحدهم يستسهل قرب دارك ليوفر أجرة السيارة
وأخرى لا تحتمل عناء الانتظار في العيادة
هل في ذلك عدل... أم أنه الغرم بعينه
وإن لمحت بسوء الفعلة انهال عليك الكلام الذي اعتدته
فليس لائقاً بك يا إنساني أن تحاسب غيرك على عمل غير إنساني

— — —

أليست الأعياد واحات في صحراء الحياة يستريح بنبعها بنو البشر
نعم إنها كذلك فيما عداك أيها الإنساني
لأنك في بعض الأيام تحت الطلب في المستشفى في أية ساعة
وهذا حق مشروع بل واجب يفرضه قانون المهنة
وأنت تحت الطلب كالعادة في الدار لتلبي استشارة طارئة
تقوم بكل ذلك وأنت سعيد لأنك أديت بعضاً من تبعات مهنتك
أما أن تكون تحت طلب من لا يحتاج لاستشارة عاجلة
فهذا من مساوئ فاقدي الذوق الإنساني
وحذار من أن تبدي ضجراً أو انزعاجاً من هؤلاء المسيئين
لأن المسألة سرعان ما تنعكس عليك يا من نعت بالإنساني
ومهما شرحت وجهة نظرك
فلن يدركوا خطأهم لفساد مروءتهم

— — —

إن قانون الحياة حينما نص بأن لكل جهد جزاء وأجر
وأن الحي الخليق بالعيش الهنيء هو من تتوفر فيه قوة السعي لاستكمال ذلك العيش
إن هذا القانون في عرف البعض يلائم الكل سواك يا إنساني
فإذا سعى الصناع لاستكمال وسائل العيش
وأخذوا أجورهم فذاك حلال مشروع
أما إن طالبت بهذا الحق المشروع فأنت مستغل جشع
يحرمون عليك ما يحلونه لأنفسهم
ويا ليتهم يكتفون بالحق المشروع عند أخذهم الأجور منك
بل دائماً هناك مبلغ إضافي
لا يمكن أن تسميه إلاّ ضريبة الاسم... اسم طبيب
في الوقت الذي يريدون منك أن لا تأخذ منهم أجور أتعابك
لا لفقر أو عوز... بل لأنك في نظرهم لا تصرف جهداً كثيراً
ولا مادة أولية فيها رأس مال

أما بعد كل هذا لو سألتني ما أنت صانع لو خيرت
أتستبدل مهنتك أم تختار مهنتك من جديد
أقول إنني سوف أختار الطب ولا أرضى عنه بديلا
لأنني أعشق الطــب
على الرغم من كل السلبيات غير الإنسانية من بعض البشر
ومهما عشت مضطرباً في دائرة الطب الضيقة
فإنني أشعر بأن فيه كل ما في الدنيا الواسعة
من لذة الروح وسرور القلب وراحة الوجدان
لأنني لا أجد السعادة إلاّ في تخفيف آلام المحزونين من المرضى
وإسباغ الراحة والطمأنينة والسرور على نفوسهم
وعندما أسمع دعاءً صادقاً من أبوين عند شفاء ولدهما

تحلق روحي عالياً لتشكر رب الناس الشافي
ولا يهمني المال فأنا قانع بما رزقه الله من الأجر الحلال
ومهما لقيت من الصعاب والمثبطات فلن أستبدل بالطب غيره
وكل ما أتمناه أن يعترف بي أنني إنسان
أعاني كبقية البشر من متطلبات الحياة
ولي مشاعر وأحاسيس
يعطونني حقي ويأخذون حقهم
يعطونني الفرصة لأخلو للراحة حيناً وللدراسة حيناً آخر
لكي أستطيع أن أعطي وأمنح العون لمن يستحقه وبالشكل الصحيح
وأخيراً أدعو الله أن يلهم الناس الرشاد
وأن يعلمهم من قواعد الخير حتى يتسعوا ويمتدوا في إنسانيتهم
فيعذروا الطبيب ولا يضعوه تحت المجهر
وأن يتذكروا يوماً إذا قدر الله أن تهاون أو انفعل من جراء
التعب والإجهاد... أن ذلك طبع يتصف به كل البشر
وإن كان لابد من حساب المقصر
فأرجو أن يكون حساب الطبيب ككل البشر
لأنه أولاً وأخيراً واحد من بني البشر

الطبيب المتهم

أنهى صديقنا (ح) رحمه الله دراسة الطب في ستينيات القرن الماضي واستلم شهادته مسروراً، ولكن سعادته لم تكن كاملة لأن قلة وزنه وطوله عن زملائه كانا يقلقانه وينغصان حياته. حاول خلال سنوات الكلية جاهداً أن يتجاوز وزن الخمسين من الكيلوات إلاّ أنه ظل دون ذلك حتى بعد التخرج. وعندما قدم مستمسكاته ليلتحق في دورة ضباط الاحتياط كان وزنه شفيعاً له حيث أن قوانين الجيش يومها لم تكن تسمح دخول الجيش لمن وزنه أقل من الخمسين كيلو غراماً. وبذلك أفاد من نقص الوزن الذي كان يقلقه، فسبق أقرانه في الحياة الطبية المدنية وقاسى الآخرون الأمرين في حرب ضروس في شمال العراق.... وهكذا تحققت إرادة الله (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم).

سارت أموره في المستشفى بشكل روتيني كأي طبيب مقيم دوري، وبعد إنهائه الفترة المقررة في قسم الباطنية انتقل إلى قسم الجراحة. وفي قسم الجراحة قضى فترة ليست بالقصيرة. أصبح خلالها صاحب خبرة لابأس بها جعل مسؤول الردهة الطبيب الاختصاص معتمداً عليه وواثقاً من خبرته.

ومرت الأيام وصديقنا ماض في عمله برغبة واندفاع دون ملل، يستقبل المرضى ويثبت طبلاتهم، ويعرضهم على الأخصائي الذي يحدد مواعيد العمليات، يساعد الأخصائي في العمليات، يعتني بالمرضى بعد العملية ويودع من يتشافى منهم بكل رحابة صدر وشعور بالغبطة والسعادة من نجاح العمليات.

وفي مساء يوم مثقل بالعمل، أخلد في دار الأطباء المقيمين للراحة قليلاً ممنياً نفسه بنوم هانئ حيث أن مرضاه كانوا في ذلك اليوم في أحسن حال، ليس بينهم من يحتاج للمتابعة المستمرة خلال الليل. ولكن الرياح الطيبة لا تهب كما نرغب دائماً، ففي ساعة متأخرة من الليل رن

الهاتف... تناول السماعة... إذا بالطبيب المقيم في شعبة الباطنية (م) يستدعيه لفحص مريض أصيب بخراج في منطقة الإلية إثر إعطائه قبل أيام حقنة عضلية من مادة (البوتازوليدين) التي ألغيت من التداول فيما بعد. أسرع في إجابة الطلب، ولدى فحص المريض تبين له أن الخراج (كانكرين غازي)... وأن حالة المريض سيئة جداً.

طلب نقل المريض لشعبة الجراحة... حيث تم عزله في غرفة منفردة... أخبر الطبيب الأخصائي المسؤول عن الردهة بالأمر وشرح له الحالة... أجابه الأخصائي بأن الحالة شديدة الخطورة ولا تحتمل التأخير... أسرع بفتح الخراج ريثما أصلك. أجرى شقين في مكان الخراج في الإلية وفجر الخراج... ولما بدأ بإجراء الشق الثالث لإكمال العمل، توقف ولم يكمله، إذ سمع شهقة من المريض سكت بعدها قلبه. وخلال قيامه بهذا العمل كان أقرباء المريض وأصدقاؤه متجمهرين على باب الغرفة التي كان قد أقفلها وكان بعضهم أعضاء في ميليشيات الحزب الحاكم ومسلحين، حار بأمره لوهلة ماذا يفعل؟ وكيف يبلغ ذوي المريض بما جرى... ولكنه وبكل رباطة جأش فتح باب الغرفة وصرخ في وجه الوقوف، انتشروا وبسرعة في الردهات... فتشوا عن الطبيب الأخصائي الذي من المفروض أنه قد وصل، وربما قد استوقفه أحد في الطريق... وفي لحظة انفض الجمع وسنحت الفرصة له بالهرب... بعد أن أشار للممرضة بأن تسرع في إبلاغ الشرطة المسؤولين عن حراسة المستشفى، وأن تحذر الدكتور الأخصائي من الاقتراب من الردهة خشية عليه.

ثم أخذ يتلفت يميناً وشمالاً عله يجد له مهرباً... حتى ساقته قدماه إلى أقرب باب مفتوح خارج الردهة... اختبأ خلسة خلفه... وبقي كذلك لبعض الوقت مرعوباً يرتجف... حيث سمع المسلحين يتراكضون رواحاً ومجيئاً والشر يتطاير من عيونهم بعد أن علموا بموت صاحبهم يفتشون عن الطبيب الذي كان سبباً في هلاك مريضهم... وكان يتلصص من شقوق الباب من غير أن يروه... وبعد دقائق معدودات كانت بالنسبة له دهراً

طويلاً من الزمان... التفت يمنة فوجد شباكاً قريباً مطـلاً علـى حديقـة المستشفى... فما كان منه إلاّ أن قفز قفزة لم يقفزها في حياته ولو طلـب منه ثانية أن يكررها لن يستطيع القيام بذلك، إلا أن تلـك القفـزة كانـت المنجية، حيث أصبح طليقاً بعدها، وبعد خطوات وصل سيارته وفي لمح البصر استقلها وأدار المحرك وبسرعة فائقة هرب خارج المستشفى ونجا مما لا تحمد عقباه.

ومن هول ماجرى لم يستطع النوم ليلته، وفي صباح اليوم التالي اتصل بالمستشفى وبعد حصوله على سلامة الجو من أي شيء مريب، جاء إلى المستشفى وكله ثقة بأن الخطر قد زال والمسألة انتهت والأمـور عـادت لطبيعتها، إلاّ أنه بعد ساعات فوجئ بتقرير الطبيب العـدلي (الـشرعي) المدون فيه بأن سبب وفاة المريض ((وجود شقين جراحيين في الإلية، مع ضربة سكين)) !!!!

راجع الطبيب العدلي وأبلغه القصة وأن الشق الثالـث لـيس ضـربة سكين، بل شق ثالث قام بإجرائه الجراح... حيث لم يكمله لأن المـريض كان قد فارق الحياة... واحتدم الجدال بينه وبين الطبيب العدلي هو يقـول بأنه شق غير مكتمل قام به والطبيب العدلي يقول لا يمكنني أن أسميه شقاً جراحياً وإذا كنت مصراً على قول ذلك تعال وأكمل الشق لكي أعتبره شقاً جراحياً. وكان جوابه... معاذ الله أن أمثل بجثة مريض، لكي أبرئ نفسي. واستمر النقاش بينهم وتدخل الجراحون الآخرون والإداريون... وبعد جهد جهيد اقتنع الطبيب العدلي على مضض... وبدل تقريـره... فحمـد الله صاحبنا على نجاته من تهمة القتل وتهمة ضرب المرحوم بسكين.

رب مريض يداوي من يطببه

بعد أن أكمل الطبيب الشاب فحص المريض، جلس ليصف الدواء، وقبل أن يبدي نصائحه تناول علبة الدخان ووضع السيجارة في فيه بعد أن أشعلها وبنهم بين، وأخذ بتقديم النصائح والإرشادات للمريض، وعدد ما مسموح له تناوله من الأغذية وما هو من الممنوعات، وتوقف كثيراً في تبيان أضرار التدخين وكيف انه سبب مباشر في إصابة المدخن بقرحة المعدة والإثني عشري، وأنه يساعد على الإصابة بتصلب الشرايين ومن ثم ارتفاع ضغط الدم والإصابة بالجلطة القلبية أو الدماغية وأن نسبة المصابين بسرطان الرئة والحنجرة من المدخنين يفوق غير المدخنين بعشرات المرات. وكان بين الفينة والأخرى يمص سيجارته بعمق حتى أنهاها مع نهاية نصائحه القيمة.

وبعد أن أنهى خطبته الحماسية نظر إلى مريضه، إذا به يفاجأ بالمريض واقفاً وبعلامات الاستغراب التي بدت على محياه وقوله سوف أعمل بنصيحتك، ولكن نصيحتي لك أيها الطبيب العبقري أن لا تنصح أحداً بترك عمل شيء وتأتي مثله فقد قال سبحانه في محكم التنزيل ((أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم...)) وقال الشاعر قديماً (لا تنه عن خلق وتأتي مثله... عار عليك إذا فعلت عظيم) وأدار ظهره خارجاً، ناداه لقد نسيت الوصفة... أجابه إن شاء الله سوف لن أحتاجها لأنني صممت أن أقلع عن عادة التدخين منذ الساعة، ونصيحتي لك أن تعالج نفسك فأنت طبيب تداوي الناس وأنت عليل.

كان لتصرف وكلام المريض أثر بالغ في نفس الطبيب جعله يخجل ويهتز هزة عنيفة أرجعته إلى الوراء سنين عددا، فأخذ يعيد مع نفسه شريط طفولته وذكرياته مع والده وتعوده على عادة التدخين السيئة.

كان والده قد أدمن على التدخين منذ باكورة حياته، حتى أصبحت السيجارة جزأ لا يتجزأ من حياته طيلة نهاره وحتى في الليل كان يستيقظ قلقاً ولا يهدأ له بال حتى يدخن سيجارة أو اثنتين يعود بعدها للنوم.

بقي الوالد على تلك الحال أكثر من خمسين سنة دون أن يشتكي من مرض. لم يدخل غرفة طبيب طيلة هذه السنين، وعندما كان أحدهم يذكر أضرار التدخين على الصحة يضحك بملء شدقيه، كيف أصدقك يا هذا وأنا أمامك دليل واقعي وشاهد على خلاف ما تقول.

وتمادى الوالد في هوايته دون هوادة، حتى شعر يوماً على حين غفلة بألم شديد في صدره، جعله يركض إلى أقرب طبيب قلب، أعطاه ما خفف ألمه وأخبره بأنه مصاب بذبحة صدرية، وأن ذلك إنذار بوجوب ترك التدخين، وأنه أصبح مرشحاً للجلطة القلبية وأن الجرة سوف لن تسلم في كل مرة.

عاد إلى البيت محبطاً وفي نفسه قرار بعدم تطبيق نصيحة الطبيب والاستمرار على التدخين، ولكن بعد توسلات أمه وإخوته انصاع الوالد وعزم على ترك التدخين.

وبعد حين من الدهر زالت أعراض الذبحة ولم تتكرر وتحسنت صحته، وأطمأن الجميع على صحة الوالد وظنوا أن عادة التدخين قد ولت من والدهم وإلى الأبد... ولكن هيهات فإن حنينه للسيجارة كان عارماً لم يتغير، ففي يوم من الأيام بينما كان هو في غرفته إذا به يلاحظ والده يتسلل خفية إلى شرفة المنزل، وبعد أن يتلفت يمنة ويسرى ينحني ويلتقط من زاوية في الشرفة عقب سيجارة ويشعلها بتستر ويخفي رأسه وراء العمود ويمصها بنشوة مصاً شديداً . أخذ يراقب والده كلما ذهب إلى الشرفة دون أن يشعره، وإذا بالوالد يكرر ذلك كل يوم ولعدة مرات، تأثر الولد من ذلك المنظر وقرر مع نفسه أن يقدم العون له دون علم والدته أو إخوته الكبار، وحتى دون علم الوالد نفسه. فكان كل يوم يأخذ من علبة أخيه الكبير سيجارة يقسمها ويرميها دون علم أحد في الركن الذي اعتاد

الوالد فيه التدخين على غفلة من الجميع، وعندما يعثر على قصاصات السجاير يتناولها بفرح غامر ويدخنها فتنفتح أساريره ويستأنس بها، ويفرح هو بفرح والده، ولم يكن لعقله وهو ابن العاشرة أن يسمح له التمييز بين النافع والضار ليعلم أنه يقدم لوالده مع كل ابتسامة جرعة قليلة من السم القاتل.

ومضت الأيام سراعاً، نفد صبر الوالد من التدخين سراً، وتحدى الجميع وأخذ يجهر بالتدخين وعادت حليمة لعادتها القديمة وبشكل أشد وأعنف، حتى لما أصيب بنوبة قلبية وأدخل شعبة العناية المركزة، كان يتوسل بالزائرين أن يعطوه ولو سيجارة واحدة، وعندما كان يحصل عليها كان يدخنها على حين غفلة من الأطباء والممرضين وبطريقة مضحكة، حيث كان يرفع قناع الأوكسجين من على فيه ليدخن ثم يعيد القناع.

وكان هو يراقب والده ويتعايش مع تلك الأحداث، وشيئاً فشيئا كانت بذرة التدخين قد استقرت في نفسه وبدأت تنمو حتى اعتاد هو الآخر على ذلك وفي سن مبكرة. توفي الأب بعد إصابته بسرطان الرئة، وبعد سنوات أكمل دراسة الطب وتعلم وأحس أضرار التدخين نظرياً من الكتب وعملياً من المرضى، ولم يزده ذلك إلا إصراراً وإمعاناً في التدخين.

((أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم...)) أعاد الآية الكريمة بصوت عال مرات ومرات، وبفيض رباني كان في كل مرة يزداد اطمئناناً ويكتسب عزماً وقوة لاتخاذ القرار الحاسم في الإقلاع عن التدخين.

وهكذا انتهت حكايته مع التدخين إلى الأبد، وأعتاد في كل سنة عندما كان يحاضر على طلابه أضرار التدخين، يروي لهم قصة المريض الذي كان سبباً في شفائه هو من هذا الوباء.

زواج ثان من أجل الولد

في ثمانينيات القرن الماضي وفي عصر يوم ربيعي جميل دخل أبو حازم غرفة الفحص في عيادة الدكتور (أ)، وأبو حازم هذا المريض الريفي من أبناء الستين والمصاب بقرحة المعدة كان زبوناً كثير المراجعة ومعروفاً لدى السكرتير والطبيب من كثرة تردده وكرمه وطيب كلامه وحسن تصرفه. ولكن في هذه المرة لم يكن وحده كمراجعاته السابقة وإنما كانت ترافقه فتاة ريفية في ريعان الشباب. وقبل أن يسأله الطبيب بادر قائلاً: هذه زوجة ابني، تزوجها حازم منذ ثلاث سنوات وولدت له بنتين وكما تعرف نحن أبناء الريف أكثر منكم أبناء المدينة نرغب وبإلحاح أن يكون لنا ذرية من الذكور، لأنهم الذين سيستمر بهم اسم العائلة والعشيرة ويكونون حماة لها.

لذا قررت تزويجه من امرأة ثانية علها تنجب له ولداً ذكراً. رجائي أن تزودني بتقرير تؤيد فيه إصابتها بمرض يمنعها من ممارسة الحياة الزوجية.

كانت القوانين يومها لاتسمح للزوج بالزواج ثانية إلاّ إذا وافقت الزوجة الأولى أو إذا قدم الزوج دليلاً مستنداً إلى تقرير طبي يثبت فيه إصابة الزوجة بمرض يعيقها من القيام بمتطلبات الحياة الزوجية.

وكان زميلنا الطبيب من الأطباء المؤمنين بالله القائمين بحقه العاملين بأوامره المراقبين له في السر والعلن والعارفين بأن حياة المولود وتحديد نسله من الله، وكان صادقاً إن قال أو كتب تقريراً أو شهادة، لا تدفعه نوازع المودة والمادة إلى أن يدلي بشهادة أو بتقرير أو بحديث يعلم أنه مغاير للحقيقة.

قال له الطبيب: لا يمكنني أن أكتب تقريراً إلاّ بعد التأكد من وجود مرض حقيقي بإجراء فحوصات مختبرية وإن تأكد عندي عدم إصابتها بأية علة، يؤسفني أن أرفض طلبك.

عندها انتفض أبو حازم قائماً وقال هناك فلان وفلان من الأطباء يسعدهم أن يكتبوا التقرير مقابل أجرة الفحص.

وقبل أن يغادر الغرفة استدرك الطبيب: مهلاً أبا حازم أنت رجل مسلم وصاحب دين يجب أن ترضى بما قسمه الله لأن موضوع جنس المولود مرتبط بإرادته فهو وحده الذي يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء ذكوراً، وكل شيء عنده بمقدار، كما أريدك أن تعرف بأن مسؤولية تحديد جنس الجنين علمياً هي مسؤولية كرموسومات الزوج وليس الزوجة.

فأرجوك أن لا تستعجل فقد ترزق زوجة ابنك بذكر في حملها القادم إن شاء الله.

أجابه: وبانزعاج بأنه سوف لن يأخذ بكلامه وإنما سيذهب إلى الطبيب (فلان) وسوف يحصل منه على التقرير مقابل ١٠ دنانير.

عندها أشار الطبيب للسكرتير بإرجاع مبلغ الفحص له وكان حينها ٥ دنانير أخذها ومن دون تحية الوداع غادر الغرفة وبرفقته زوجة ابنه التي لم تنبس ببنت شفة. وكانت تلك آخر زيارة له للعيادة التي كان يزورها على الأقل مرة كل شهرين.

وبعد سنتين دخلت غرفة الفحص تلك الشابة الريفية وكانت تعاني من آلام في المعدة ومعها حماتها وبعد أن اطلع الطبيب على الملاحظات التي كان قد دونها في بطاقتها القديمة لدى مراجعتها مع حماها، تذكر قصتها وقصة التقرير الذي كان سبباً لقطيعة زبونه.

ولدى سؤالها عن موضوع زواج زوجها قالت ذهب والد زوجي كما ذكر إلى الطبيب (فلان) وحصل على التقرير الذي أراده دون أن يأخذني معه وزوج ابنه بزوجة ثانية، وكانت مشيئة الله أن تحرم الثانية من الحمل لعاهة في مبيضها، وأما هي فقد حملت بعد مراجعتها له بأيام ورزقت بطفل ذكر بفضل الله ورحمته، وسمته باسم الطبيب تقديراً منها لموقفه النبيل، وأردفت قائلة والآن حدثت مشاكل بين زوجها ووالده من جهة وزوجته الثانية من جهة أخرى... وربما ينتهي زواجه الثاني بالطلاق.

ضحك زميلنا بملء شدقيه من عجلة الإنسان وقلة صبره، وأكبر صبر تلك الشابة الريفية وشجاعتها وذكائها وحمد الله على ماقام به من التـزام بقواعد السلوك الطبي الإسلامي الصحيح ودعا بالصلاح لزميله الذي همه الدينار، لا يتحرى أ من حلال جاء أم من حرام؟

السروال

الزمن هو سبعينيات القرن الماضي، حيث ظـواهر التمـدن تجلـت وفرضت نفسها على أغلب مرافق الحياة في العراق عامـة والموصـل بشكل خاص. وعلى الرغم من ذلك فإنه بقيت شريحة من المجتمع تعيش متخلفة عن الركب، تعيش حياة الأجداد المتمثل بالبداوة والبـساطة، مـع الاعتزاز بالأخلاق العربية الأصيلة كالكرم والأمانة وصفاء النية وحـب الخير والعمـل به.

(خليف) هو واحد من تلك الشريحة الطيبة، كان يعيش حياة البداوة في ضاحية من ضواحي مدينة الحضر التاريخية بخيمتين إحداها دار سـكناه وعائلته والأخرى مأوى أغنامه، وبحمد الله كان صحيح البـدن مفتـول العضلات سعيداً بحياته، ينتقل بخيامه وأغنامه من مكان لآخر بحثاً عـن الكلأ لرعي أغنامه، يبيع لبنها وصوفها، ويحتفظ عند ولادتهـا بالإنـاث ويربي الذكور من الخرفان لبعض الوقت حتى يحين الوقـت المناسـب فيبيعها، وبذلك يحصل على دخل مناسب يعينه على تلبية حاجات العائلـة والعيش المعتدل الكريم.

مضت السنين والكل في معية خليف ماضون في سعادة وحياة سلسة، حتى كان ذلك اليوم المشؤوم من أيام بدايات الربيع حيث عصفت الـريح وتلبدت السماء بالغيوم السوداء وانهمر المطر قرباً قربا، لم تصمد الخيام غير ساعات أمام تلك الرياح العاتية، انقلعت الأوتاد وانقطعـت الحبـال فهوت الواحدة تلو الأخرى، وأصبح الجميع بلا مأوى وباتوا ليلـتهم فـي

العراء ماء المطر من فوقهم والسيول الجارفة المحملة بالطين اللازب من تحتهم.

ومع انقضاء الليل وشروق الشمس كانت العاصفة قد ولت وانقطع المطر وضحك النهار، عندها قام وبمعونة الزوجة والأولاد بإعادة نصب الخيام ونشر الملابس والفرش المبللة، وبعد أيام قليلة عادت الخيمة ومحتوياتها كما كانت. إلا أن خليف لم يعد كما كان، حيث شعر بقشعريرة وحمى مع آلام في المفاصل، وقلة في الشهية، ولم يعد له عزم للقيام بواجباته اليومية.

افتقده جاره فسأل عنه وزاره، ونصحه بمراجعة طبيبه الدكتور (ع) في الموصل. وفي فجر اليوم التالي خرج برفقة جاره، وبعد مسير على الأقدام لمسافة نصف ساعة وصلوا الشارع العام. مرت السيارات الواحدة تلو الأخرى وهم يلوحون، إلا أن أحدا من سائقيها لم يتوقف، وبعد ساعتين أو أكثر توقفت إحداها وقبل سائقها أن يوصلهم إلى الموصل. وبعد وصولهم شارع نينوى وقرب عيادة الدكتور (ع) طلبوا من السائق الترجل.

كان الوقت مبكراً، إلا أن الطبيب المقصود كان من الأطباء الذين يفتحون العيادة قبل الآخرين لأن أغلب مراجعيه من خارج الموصل من الذين يأتون مبكرين ليعودوا إلى قراهم مبكرين. ولدى وصولهم وجدوا باب العيادة مفتوحاً والطبيب حاضراً.

استقبلهم بالترحاب، حيث أن خليف كان من زبائنه المعروفين، وبعد أن استمع الطبيب لقصته وإجاباته على أسئلته قام لفحصه، إلا أنه قبل أن يبدأ سأله هل لابس سروال بغية تغطيته بالغطاء الأبيض المعد إن كان بلا سروال؟ قال لا والتفت إلى صاحبه ومن دون إحراج أو خجل طلب إعارته سرواله، لبس السروال المعار وارتقى إلى المنضدة،أصغى الطبيب إلى قلبه ورئتيه، ونقر على صدره وظهره وجس نبضه، وجعله يقف ويجلس ويستلقي، وأخيراً أومأ برأسه أن انزل، نزل وأعاد السروال

لصاحبه وكأن ذلك أمراً اعتيادياً لا غبار عليه في عرفه وعرف صاحبه. ذكر له الطبيب تشخيص مرضه وكتب له الوصفة وشرح له ما يستوجب أن يحتاط منه، دفع أجرة الطبيب وخرج مودعاً بمثل ما استقبل به من الترحاب.

مرت الأيام سراعاً، ونسي الطبيب قصة استعارة السروال، وبعد أشهر إذا بخليف يدخل غرفة الطبيب، وكالعادة استقبله بما يستحقه من الحفاوة، سأله عن صحته وأحواله، حمد الله أنه بخير وعافية ولا يشكو من مرض، وأنه جاء للتحية والسلام عليه، وأخرج من تحت عباءته عقدة نشرها بكل اعتزاز، دكتور هذا سروال جديد اشتريته الآن، جلبته لتضعه عندك احتياطا ووقفاً على أرواح أمواتك ليستعمله كل من ليس لديه سروال من مراجعيك حين فحصه.

وبعد أن قهقه الطبيب بصوت عال قال له، خذ سروالك أخي فإن أمواتي في قبورهم ليسوا بحاجة إلى سروال، ورجائي منك أن تلبسه وأن لا تأتيني مرة أخرى من غير سروال.

المريض سارق الأكواب

(لله في خلقه شؤون) قالها صاحب المقهى وأضاف، بأنه يستقبل في مقهاه يومياً العشرات ذوي الأمزجة المختلفة من الزبائن.

يقضي بعضهم الساعات في الجلوس دون أن يحرك ساكنا، ويحملق قلة منهم بالمارة من البشر والسيارات وكأنهم يحصونهم عددا، وآخرون يقتلون الوقت بلعب الطاولة والدومينة، والبعض يريح نفسه من عناء العمل بالثرثرة المفيدة أحياناً وغير المفيدة غالباً، وهناك أفراد ممن لا يجد له ملجأ للقراءة أو مشاهدة التلفاز فيقضي ساعات راحته إما بقراءة الجرائد والمجلات أو مشاهدة الأخبار وبعض المسلسلات.

وهناك أشخاص لا ينتمون لأي من المجاميع التي ذكرتها، حيث ألاحظ لديهم تصرفات غريبة وغير مألوفة قد يسميه البعض بالشواذ ويسميه الأطباء مرضى نفسيون.

ومن هؤلاء السيد سالم صاحب الهندام الجيد والذي أصبح يتردد يومياً على المقهى منذ قرابة الشهر في موعد لايخلفه، وبعد أن يلقي السلام يجلس بكل وقار وحيداً وبعد أن يشرب الشاي يبقى لساعات يجول ببصره بالسابلة دون أن يكلم أحداً وفي ساعته المحددة يقوم مودعاً بكل أدب واحترام ودون ارتباك.

واستطرد صاحب المقهى قائلاً وفي أحد الأيام أخبرني عامل المقهى بأنه لاحظ بأن عدد أكواب المقهى أصبحت تنقص كل يوم كوباً خلال بضعة أيام وقلت له لعلك تكسرها وترميها... أقسم بأنه لم يقم بذلك... لم أعر للأمر أهمية وقلت له لديك في المخزن أكواب أكمل النقص، وفي اليوم التالي والذي بعده تكرر الحال. عندها أخذت الأمر على محمل الجد، فأخذت أراقب رواد المقهى، وأوصيت العامل أن يراقب بدقة ومن دون أن ينتبه أحد.

وبعد أيام وجهد جهيد، اكتشفنا السارق... واستغربت أن يكون الرجل الوقور صاحب الهندام الجيد السيد سالم يقوم بذلك، حيث لاحظناه أنا وعاملي بعد أن يكمل شرب الشاي يلف الكوب مع الطبق والملعقة بمنديل ورقي ويضعه في جيبه دون ارتباك وكأنه يقوم بعمل اعتيادي.

وأردف صاحب المقهى قائلاً استغربت كثيراً ولكنني لم أكلمه لأنني وفي قرارة نفسي قلت بأن وراء هذا العمل سراً لابد من كشفه. ولما قام صاحبنا مودعاً أوصيت العامل أن يتعقبه ويحاول أن يعرف داره، ومن يكون بغية الوصول لحل هذا اللغز.

مشى السيد الوقور ومشى العامل خلفه من دون أن يحس به، وبعد هنيهة توجه في سيره باتجاه الجسر الحديدي القريب، سار على الجسر والعامل يراقبه عن بعد، وما أن وصل منتصفه حتى مد يده في جيبه

وأخرج المنديل الورقي وبكل هدوء رمى الملعقة في دجلة أولاً وأخذ يحملق في النهر وبعد أن زالت حلقات الماء من سطح النهر رمى الطبق وانتظر قليلاً وعيونه شاخصة في محل سقوط الطبق، وبعد أن زالت الحلقات رمى الكوب، عندها كانت الحلقات أكثف واستمرت ثواني أكثر... ابتسم وانتفش سعيداً وبعد هنيهة أكمل مسيره وكأن شيئاً لم يكن وبعد أن وصل نهاية الجسر قفل راجعاً من الجهة الأخرى للجسر وبعد الجسر دلف أحد الأزقة والعامل وراءه وبعد أن وصل داراً ظاهره ينم عن كون أصحابه ميسورين. هم بالدخول إلا أنه وقبل أن يدخل الدار التفت فوجد عامل المقهى وراءه... عرف أن أمره قد انكشف، لم يعد سالم بعدها إلى المقهى، ومنذ ذلك اليوم لم تنقص الأكواب....

ترى أكان اكتشاف أمره دواءً شافياً له من ذلك المرض النفسي أم أن مرضه دفع به إلى الانتقال لمقهى آخر يمارس فيه هواية سرقة الأكواب ورميها في دجلة؟ علم ذلك ربي.

المحتويات

الدكتور محمود الحاج قاسم في سطور

من مواليد الموصل : العراق - ١٩٣٧ .

* دكتوراه في الطب (M . D) من جامعة استنبول ١٩٦١ .
* العمل : طبيب اطفال ممارس ، سابقاً مدير لمستشفى الأطفال ومستشفى الحكمة للأطفال لعدة سنوات
* سابقاً محاضراً في كلية الطب بالموصل لمادة تاريخ العلوم عند العرب لمدة سنتين.
* باحث في تاريخ الطب عند العرب والمسلمين وهو أول من أرخ لتاريخ طب الأطفال عند العرب وأول من أرخ لتاريخ السرطان في الطب العربي الاسلامي .
* منح وسام المؤرخ العربي في ٢ /١٠/ ١٩٨٧ ، ومنح مدالية دائرة صحة نينوى عام ١٩٩١ . وكرم في يوم العلم عام ١٩٩٧ . وكرم من قبل نقابة أطباء العراق بمناسبة يوم الطبيب العراقي ٢٦ -٥ - ٢٠٠١ .
* عضو في عدد من الجمعيات العلمية والتاريخية منها الجمعية العراقية لتاريخ الطب . الجمعية الدولية لتاريخ الطب - مقرها باريس . اتحاد المؤرخين العرب - بغداد . عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين . الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم . رئيس نقابة الأطباء - فرع نينوى (سابقاً)

مولفاته :

أولاً - المطبوعة : ٣٥ كتاباً منها كتاب تاريخ طب الأطفال عند العرب ، الطب عند العرب المسلمين .... تاريخ ومساهمات ، انتقال الطب العربي إلى الغرب معابره وتأثيره ، الإستنسال (الاستنساخ) بين العلم والدين ، تحقيق كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم : لأحمد بن محمد البلدي ، الطب الوقائي النبوي ، السلوك الطبي الإسلامي ، الطب في الموصل عبر العصور .

ثانياً - غير المطبوعة : سبعة كتب

